

## قراءة في نظرية المعرفة عند كارل ماركس

د. علي كالم<sup>(\*)</sup>

مقدمة :

لهذه التيارات، إضافة الى الفكر العقلاني والمادي الذي كان سائداً بشكل خاص في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إضافة الى واقع الرأسمالية وتناقضاتها وما عكسته من معارف وتجارب في فكر ماركس، شكّلت الركيزة الأساسية للمنهج والنظرية عند هذا الأخير. ويتمثل الانقلاب الذي أحدثه فكر ماركس في الاكتشافات التي حقّقها على صعيد النظرية وعلى صعيد المنهج .

على صعيد النظرية: اظهر حقيقة التناقضات والعلاقات الاجتماعية الرأسمالية. على صعيد المنهج: 1 - ربط الظواهر والعمل على معرفة العلاقات التي تحكمها. 2 - معرفة قانون الظواهر، أي معرفة تتبع حركتها من خلال المظاهر المختلفة التي تأخذها، أي معرفة حركة الكل. 3 - اكتشاف الحقيقة الملموسة المتغيرة من خلال تناقضاتها الداخلية. 4 - ربط النظرية بالتطبيق، أي الفكر بالمادة. 5 - النظرة الكلية والشاملة للمواضيع المحسوسة. ان ربط

كان فكر ماركس وما يزال محوراً لنقاشات وأبحاث عديدة. وتباينت الآراء في عرضها وتقييمها له. ولعل الباعث على الاهتمام به كان وما يزال طبيعته التي أحدثت انقلاباً ليس على صعيد النظرية فحسب بل على صعيد التطبيق أيضاً. لقد مثلت النظرية عند ماركس فهماً جديداً للفرد والمجتمع والعالم، ومنهجاً جديداً في التحليل والنقد، قياساً على المذاهب الفكرية التي كانت سائدة في عصره وقبل ذلك العصر. اتسمت المذاهب الفكرية هذه بالمثالية والفردية. جاء ماركس لينقدها ويكشف تناقضاتها ونقاط ضعفها المتمثلة في العناصر التولوجية والماورائية والأخلاقية والايديولوجية. لا يعني هذا الأمر عدم وجود عناصر ايجابية في هذه الاتجاهات. فالمثالية مثلاً، كما ظهرت عند هيجل، أو عند غيره من الفلاسفة، شملت منطقاً عقلياً يتمثل في الجدلية كمنهج في فهم الفكر أو الواقع. والعناصر الايجابية

(\*) معهد العلوم الاجتماعية - الجامعة اللبنانية

النظرية بالتطبيق على أساس التطبيق يُعتبر أحد المبادئ الأساسية ويميز نظرية ماركس عن كل التيارات والاتجاهات والمواقف والمذاهب الفكرية التي عارضها، كما أنه يميزها عن العلوم الاجتماعية بدارسها المختلفة. تجدر الإشارة هنا إلى أن هذه العلوم تردّ الظواهر إلى الفكر. والفكر، بالنسبة إليها هو المتغير الثابت في الفهم. وهي تعطي استقلالية مصطنعة للظواهر. معنى ذلك أن نظرية المعرفة بالنسبة لماركس لم تعد مسألة نظرية، بل أصبحت مسألة عملية مرتبطة بالواقع وتطور الصراع الطبقي فيه.

### المثالية والمادية الجديدة:

ينتقد ماركس المادية القديمة أو المادية الحدسية كما يسميها وذلك لأسباب تتعلق بالموضوع والمنهج. بالنسبة للنقطة الأولى، تجاهلت المادية الحدسية (مادية فوريباخ مثلاً) الجانب التطبيقي أو المحسوس لأي موضوع يتعلق بالحياة البشرية أو العلاقات البشرية. وهي لم تتناول إلا جانباً منه (الفكر)، لكن بشكل مجرد. بالنسبة للنقطة الثانية، يؤكد ماركس على الجانب التطبيقي للفكر البشري، وأنه لا يمكن فصل الفكر عن التطبيق، أو النظرية عن الممارسة البشرية. وهو لذلك يرى أن معالجة فوريباخ للشعور الديني كحقيقة بحد ذاتها هي معالجة سطحية، لأنها لم تتناول الجوهر الحقيقي لهذا الشعور ألا وهو العلاقات الاجتماعية. كما أنها لم تر «أن الشعور الديني هو نتاج اجتماعي وبأن الفرد المجرّد الذي يجلّله ينتمي في الحقيقة إلى شكل اجتماعي محدد»<sup>(1)</sup>. ويرى ماركس أن الأساس الذي ترتكز عليه هذه الطريقة يتمثل في المسلّمة الخاطئة المؤخّذة عن هيغل والتي تقول بأن تاريخ العالم المادي هو تاريخ أفكار، وبأن الأفكار والمفاهيم هي التي أنتجت وهيمنت على الحياة الحقيقية للأفراد، وعلى عالمهم المادي وعلاقاتهم الحقيقية<sup>(2)</sup>.

يتعرض ماركس بالنقد للفهم المثالي، ويرى أنه لم يتخلّ عن الفلسفة كميّدان له، ولم يتخطّ النظام الهيجلي، وبقي محدوداً بنقد التصورات الدينية. ويتمثل التقدم الوحيد الذي أحرزه في ربط التصورات الدينية بالتصورات الماورائية والسياسية

النظرية بالتطبيق على أساس التطبيق يُعتبر أحد المبادئ الأساسية ويميز نظرية ماركس عن كل التيارات والاتجاهات والمواقف والمذاهب الفكرية التي عارضها، كما أنه يميزها عن العلوم الاجتماعية بدارسها المختلفة. تجدر الإشارة هنا إلى أن هذه العلوم تردّ الظواهر إلى الفكر. والفكر، بالنسبة إليها هو المتغير الثابت في الفهم. وهي تعطي استقلالية مصطنعة للظواهر. معنى ذلك أن نظرية المعرفة بالنسبة لماركس لم تعد مسألة نظرية، بل أصبحت مسألة عملية مرتبطة بالواقع وتطور الصراع الطبقي فيه. ان الاكتشافات المنهجية التي حققها ماركس جاءت نتيجة لدراسات وأبحاث اتسمت بالطابع الجدلي والعلمي والمنطقي والطابع الموضوعي والواقعي. وارتكزت هذه الدراسات على منهج يُعرف بالجدلية أو بالمادية الجديدة كما سمّاه ماركس نفسه. وأبرز الخصائص التي تميّز هذا المنهج هي الواقعية والنسبية. معنى هذا أن الجدلية عند ماركس تتناول مواضيع محسوسة من صلب الحياة الاجتماعية للأفراد، كما أنها ليست جدلية مطلقة، لأن النظرية التي أعطاها ما هي إلا لحظة من لحظات مترابطة من المعرفة. يدل هذا الأمر على أن أية محاولة لتبرير فكر ماركس كمذهب فكري أو كمذهب فلسفي، أو كإيديولوجية، كما حصل بالنسبة للعلوم الاجتماعية، والستالينية أو «الشيوعيين الأرثوذكسين» ما هي إلا محاولة لتشويه هذا الفكر وعرضه على غير حقيقته، وذلك لأسباب مادية وطبقية.

إزاء الأهمية المعطاة للنظرية عند ماركس وللمنهج الجدلي الخاص بها، سنحاول في هذه الدراسة عرض الخصائص الأساسية لهذه النظرية ولهذا المنهج من وجهة نظر تحليلية ونقدية. وسنحاول كذلك إبراز ما هو إيجابي وسلبي فيهما، معلّين وجود ثغرات معينة. وهذا أمر طبيعي بالنسبة لكل عالم، لأنه لا توجد

والقانونية والأخلاقية وغير ذلك؛ وبالقول بأن الوعي السياسي، والقانوني والأخلاقي هو وعي ديني أو تيولوجي، وبأن الانسان السياسي، والقانوني والأخلاقي، هو «انسان» ديني.

يتوجه بالنقد كذلك الى الهيجليين الجدد والقدامى. ويرى أن التقدم الوحيد الذي حققه الهيجليون الجدد على الهيجليين القدامى يتمثل في نقدهم التصورات والأفكار والمفاهيم السائدة التي كان يتمسك بها الهيجليون القدامى. والجميع، برأي ماركس متفق على أن العالم يخضع للدين والمفاهيم والشمولي. ولا يُعتبر التفسير الذي قدمه الهيجليون الجدد تفسيراً علمياً لأنه لا يربط بين الفكر والواقع، أو بين الفلسفة الألمانية والحقيقة الألمانية، أو بين النقد الذي قاموا به ووسطهم المادي<sup>(3)</sup>.

ويتعرض بالنقد لفورباخ في فهمه العالم المحسوس، فيقول بأنه لم يقل بوجود «أفراد تاريخيين حقيقيين»، بل بوجود «الانسان» المجرد، وبوجود توافق بين الانسان والطبيعة. كما أنه لم ير أن العالم المحسوس عالم متغير، وهو بهذا المعنى نتاج تاريخي<sup>(4)</sup>. ويتابع ماركس عرض الأخطاء التي وقع فيها فورباخ فيقول بأن هذا المفكر، مع أنه أدرك الانسان «شياً محسوساً»، إلا أنه فهمه «كشيء محسوس» فقط وليس «كنشاط محسوس»، وهو هنا يتمسك بالنظرية ولم يفهم الأفراد في ظروفهم الاجتماعية المعطاة، ولا في شروط حياتهم التي جعلتهم على ما هم عليه. وهو لم يدرك التناقضات في العلاقات البشرية، كما لم يدرك العالم الحسي كنشاط حي للأفراد الذين يشكلونه، الخ<sup>(5)</sup>.

تجدد الإشارة هنا الى أن الاستنتاج الذي توصل اليه فورباخ فيما يتعلق بالعلاقات المتبادلة بين الأفراد يهدف الى التأكيد بأن الأفراد بحاجة لبعضهم بعضاً، وبأن الأمر كان كذلك. ورأى أن كائن الشيء أو

الانسان هو جوهره أيضاً. حول هذه المسألة يقول ماركس بأن عدم الشعور بالرضى من قبل البروليتاريين إزاء شروط حياتهم يعني عدم توافقه مع «جوهرهم». ولتأكيد فكرته يقول بأن جوهر السمكة، أي المياه، ليس شيئاً آخر سوى كائنها؛ وجوهر سمكة الجدول هو مياه الجدول. لكن تتوقف هذه المياه عن تكوين «جوهرها» وتصبح وسطاً للوجود لا يتوافق معها عندما يخضع الجدول للصناعة والتلوث<sup>(6)</sup>. يقصد ماركس من ذلك أن كائن الشيء لا يكون دائماً على انسجام مع جوهره.

وفي كتاب يؤس الفلسفة المخصص للرد على برودون، يتوجه بالنقد الى المنهج عند هيجل، فيقول بأنه أرجع الى مقولة منطقية، والى ما ورائية تطبيقية. إذاً، فهو عبارة، كما يتكلم عنه هيجل نفسه، عن قوة مطلقة، وحيدة، عليا، وغير محدودة، ولا يمكن لأي شيء مقاومتها؛ وهو الاتجاه الذي يدرك العقل به نفسه في أي شيء. ويضيف بأن المنهج المطلق، كما هو موجود عند هيجل، والذي يعني تجريد الحركة أو الحركة في حالة مجردة تمثل في الصياغة المنطقية المحضة للحركة ولحركة العقل الخالص. ويخلص الى أن الحركة الجدلية عند هيجل (الفكرة والتناقض الذي تخلقه والفكرة الجديدة التي تنشأ عن هذا التناقض) تحصل في الفكر وليس في الواقع<sup>(7)</sup>. ويقارن بين المادية الجديدة والمنهج عند هيجل، فيقول بأن المنهج عند هذا الأخير يتصف بالمثالية، في حين يتعلق الأمر بتطوير فهم أكثر مادية للعالم. وبينما ينطلق المنهج عند هيجل من الفكر الخالص، تنطلق المادية الجديدة من الوقائع<sup>(8)</sup>. وفي حين أن الواقع ما هو إلا الشكل الظاهراتي للفكرة بالنسبة لهيجل، فإن حركة الفكر ما هي إلا انعكاس للحركة الحقيقية بالنسبة لي<sup>(9)</sup>. وبين حسنات المنهج عند هيجل، فيقول بأنه، على الرغم من المثالية التي يتصف بها، فهو لا يخلو من المنطق،

أساس الجانب الجيد والجانب السيء اللذين تحتويهما، لأن حذف الجانب السيء لا يغير من طبيعة الانتاج الاقطاعي. وفي الحقيقة، تحتوي الاقطاعية على تناقض حيث أن انتصار أحد طرفيه هو الذي أزال النظام الاقطاعي. فالأمر لا يتعلق بالجانب الجيد والجانب السيء للاقطاعية، إنما بإزالة كل الأشكال الاقتصادية القديمة، والعلاقات المدنية المتوافقة معها، والحالة السياسية التي هي بمثابة التعبير الرسمي عن المجتمع المدني القديم. المسألة اذن مسألة كلية وغير عرضية. والأمر نفسه بالنسبة للبرجوازية، حيث ان التناقض الأساسي الذي تحتويه سوف يؤدي الى الغاء العلاقات الاجتماعية الرأسمالية<sup>(13)</sup>.

ما هي أسس الفهم المادي الذي ارتكز عليه ماركس في مواجهة المثالية والمادية القديمة؟ يرتكز الفهم المادي على قواعد حقيقية. تتمثل القاعدة الأساسية في وجود أفراد حقيقيين يعملون من أجل تأمين حياتهم. لا يمكن فهم هؤلاء الأفراد بمعزل عن شروط وجودهم المادية. كما لا يمكن فصل تاريخهم عن تاريخ الطبيعة، وليس تاريخهم شيئاً مجرداً كما تدعي الأيديولوجيا. ولكي نفهم ما عليه الأفراد، أي خصائص حياتهم الاجتماعية بأشكالها المختلفة، علينا معرفة نمط حياتهم المادي، أو نمط نشاطهم المادي، أو الطريقة التي يستخدمونها من أجل الحفاظ على بقائهم واستمرارية وجودهم. «ما هم عليه الأفراد، يقول ماركس، يتطابق مع انتاجهم، ومع ما ينتجونه وطريقة هذا الانتاج. ما عليه الأفراد يرتبط بالشروط المادية لانتاجهم». هذا يعني أنه لا يمكن فهم العلاقات الاجتماعية بدون الإنتاج. كما أن الأشكال المختلفة التي تأخذها عبر تطورها مشروطة به. إذ هناك علاقة جدلية بين الأفراد فيما بينهم من ناحية، وبين الأفراد والطبيعة من ناحية أخرى<sup>(14)</sup>.

وفي مقدمة نقد الاقتصاد السياسي، يحدّد ماركس

ويجب اخضاعه للنقد. وتتمثل الحسنه الكبيرة التي يظهرها نمط التفكير عند هيغل في المعنى التاريخي أو الفهم التاريخي، والقول بتطور التاريخ وترابطه الداخلي. وفي حين أن هذا المعنى عند هيغل مرتبط بقاعدته الأساسية: الفكر المطلق أو الفكر المجرد، فهو يشكل عند ماركس القاعدة الأساسية التي يرتكز عليها الفكر، كما يشكل المسلّمة النظرية المباشرة ونقطة الانطلاق للمنهج المنطقي. وبهذا المعنى خلّص ماركس المنهج الجدلي من شوائبه المثالية<sup>(10)</sup>.

ويتعرض بالنقد للجدلية عند برودون، فيقول بأن الحركة الجدلية عند هذا الأخير تتمثل في التمييز الدوغمائي بين الجيد والسيء، في حين أنها عبارة عن تعايش بين جانبيين متناقضين ومتصارعين، وذوبانها يؤدي الى مقولة جديدة. وليست المقولة الاقتصادية كما يدعي برودون تحتوي على جانب جيد وجانب سيء، إنما هي عبارة عن مقولة تطرح نفسها وتعارض مع نفسها وذلك استناداً الى طبيعتها المتناقضة. ويخلص الى القول بأن برودون يتناول المقولة الأولى ويعطيها بشكل تعسفي صفة جلب دواء لسيئات المقولة المتوجب تصفيتها. وهكذا، فإذا صدقنا السيد برودون، يضيف ماركس، فالضرائب تداوي سيئات الاحتكار، وميزان التجارة سيئات الضرائب، والملكية العقارية سيئات القروض<sup>(11)</sup>.

ويتابع تعليقه فيقول بأنه عندما تُحوّل جدلية برودون المقولة الى جانب جيد وجانب سيء، فهي تُبعد طابع العفوية واللاتوقع عنها، كما تُبعد طابع العمل وطابع الحياة والتناقض والانقسام الى مقولات. وتصبح الأفكار مجرد أفكار تتراكم في بناء معين. ويضيف بأن برودون لم يأخذ في الاعتبار التسابع التاريخي حيث تظهر فيه مقولات. فالعصر عنده ينتمي الى المبدأ، وليس المبدأ الى العصر<sup>(12)</sup>. ولتوضيح فكرته، يعطي أمثلة حسية. يقول بأنه لا يمكن فهم الاقطاعية على

والاكتفاء بالانطلاق من الظاهرة الخارجية. 6 - مقارنة ومقابلة الواقعة بالفكرة والواقعة بالواقعة، ودراسة مجموعة الظواهر التي تظهر كمراحل متتابعة للتطور. 7 - القوانين العامة للحياة الاقتصادية غير ثابتة، كما لا وجود لقوانين مجردة. 8 - لكل مرحلة تاريخية قوانين خاصة بها، كما لكل عصر تاريخي قانون خاص به. 9 - يؤدي تطور القوى المنتجة الى تطور العلاقات الاجتماعية. إضافة الى هذه الخصائص، يمكن القول بأن المنهج عند ماركس هو منهج استنتاجي وتحليلي، ويتصف بالواقعية. كما أنه يربط الظواهر الاقتصادية بالعلاقات الاجتماعية، وبالطبقات الاجتماعية تحديداً. وهذا ما يتناقض مع الفهم البرجوازي لهذه الظواهر<sup>(17)</sup>.

ما هو موقف جورج غورفيتش من المادية أو المنهج الجدلي عند ماركس<sup>(18)</sup>؟ يحاول غورفيتش إعطاء ما هو ايجابي وسليبي في الجدلية عند ماركس. تتمثل الحسنة الأولى في الرغبة التي أبدتها في ألا يكون دوغمايياً، وفي العمل من أجل استبعاد أي موقف فلسفي مسبق مثل الروحانية والمادية والشكوكية والأخلاقية؛ وفي أن جدليته تتصف بالتوجه الواقعي، وبشمول العناصر المختلفة للحقيقة الاجتماعية، أي العناصر المادية والعناصر الفكرية المجردة. وتتمثل الحسنة الثانية في الجدلية كحركة واقعية تتناول الحقيقة الاجتماعية وتعبيراتها التاريخية والكائن الاجتماعي والفردي. ما هو ايجابي كذلك عند ماركس يتمثل في أن مصدر الجدلية بين المناهج المختلفة للعلوم هو الحركة الجدلية الحقيقية للمجتمع، والتي تنعكس على المناهج في العلوم الطبيعية. وتتمثل الحسنة الثالثة في اكتشاف تنوع من الاتجاهات الممكنة للحركة الجدلية الحقيقية الملاحظة في الحياة الاجتماعية. يقول غورفيتش بأن ماركس، إذا لم يميز هذه الأوجه على نحو كافٍ، فهو، على الأقل، لديه كل الثقة بأن الجدلية التاريخية

من جديد القاعدة التي يركز عليها فهمه المادي أو منهجه الجدلي. يقول بأن القاعدة الصلبة للمنهج الجيد تتمثل في الواقع الملموس، أي في تناول الاقتصاد من خلال المجموعة السكانية التي تشكل السيورة الاجتماعية للإنتاج. وتكون المجموعة السكانية مجردة إذا حصل مثلاً تجاهل للطبقات التي تشكل منها. وتكون الطبقات بدورها خالية من المعنى إذا حصل تجاهل للعناصر التي تركز عليها: مثلاً العمل المأجور ورأس المال، الخ. ويفترض هذان الأخيران التبادل وتقسيم العمل، والأسعار، الخ.

كيف يحصل الفهم المادي؟ تكون عملية الفهم من المحسوس نحو المجرد وليس العكس. ويوضح ماركس فكرته بأن مفهوم قيمة التبادل مثلاً يفترض نموذجاً معيناً للعائلة، والجماعة أو الدولة، الخ<sup>(15)</sup>. ويعطي تعريفاً للمادية الجديدة فيقول بأنها تتطابق مع نظرية عامة للمجتمع، وهي في الوقت ذاته منهج للشرح السوسولوجي ووسيلة لمعرفة وشرح الحقيقة الاجتماعية والتاريخية<sup>(16)</sup>.

ما هي خصائص الفهم المادي أو المنهج الجدلي عند ماركس؟ يمكن عرض الخصائص العامة، كما بينا ماركس تقريباً في المقدمة الثانية من كتابه رأس المال، وذلك من خلال النقد الذي وجهه إليه أحد المؤلفين الروس. وتتمثل هذه الخصائص في الآتي:

- 1 - الهدف الأساسي هو إيجاد قانون للظواهر، أي قانون تغيرها وتطورها وانتقالها من شكل الى آخر.
- 2 - إيجاد أنظمة تحدد العلاقات الاجتماعية. 3 - الانطلاق من الوقائع الملموسة. 4 - فهم الحركة الاجتماعية كارتباط طبيعي من الظواهر التاريخية، كارتباط خاضع لقوانين، وبأن هذه الظواهر مستقلة عن إرادة ووعي الإنسان، بل يمكن القول إنها تحدد ارادته ووعيه. 5 - عدم إعطاء الوعي دوراً أساسياً،

لم يُستَخدم إلا للاحتجاج على الفكر التبولجي عند هيغل والهيغلين الجدد. ولمواجهة الوهم المثالي الهيجلي المتمثل في القول بأن الفكر هو الذي يخلق الواقع، قَبِلَ ماركس مصطلح «المادية»، في حين أنه لا يعبر عن فكرته أبداً. ومع أن ماركس، في مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي، صلب من موافقه وذلك من خلال إعطاء أفضلية لقوى الانتاج المادية بأن «شرح المجتمع موجود في الاقتصاد» وأن معظم الإنتاج الحضاري موجود في «البنى الفوقية الإيديولوجية»؛ فهو لم يصبح مادياً، بل وصف نوعاً خاصاً من المجتمعات، المجتمع الرأسمالي، وبحث عن مقاييس لفهم المجتمع الذي هو بالنسبة اليه أكثر من اقتصاد، لأن الحركة الجدلية للمجتمع تُغيّر من الاقتصاد. يحاول غورفيتش تدعيم فكرته من خلال أمثلة عديدة، ويستشهد بالتساؤلات التي طرحها ماركس بخصوص كيفية شرح القانون أو الفن.

كيف يعلّل غورفيتش القول «بوجود قوانين طبيعية للرأسمالية»؟ يرى أن ماركس، باستخدامه هذا المفهوم، وُضع على الأقل من حيث الظاهر خارج حركة الجدلية الخاصة بالحقيقة البشرية، مع ادراكه تناقض هذا المفهوم مع مفهوم الحقيقة البشرية ومع مفهوم التطورية. واستخدامه من قبل ماركس عائد للوجو التطوري والوضعي الذي كان سائداً في انكلترا حيث كتب رأس المال. ولهذا السبب، حاول في مقدمة الطبعة الألمانية الثانية للجزء الأول من هذا الكتاب، تبرير استخدامه الجدلية كطريقة لعرض نتيجة أبحاثه الاقتصادية. وبهذا الأمر، وضع نفسه في وضع صعب لأن الجدلية كطريقة للعرض ليس لها معنى، إلا إذا كانت على علاقة بالجدلية كحركة حقيقية.

يوضح غورفيتش أن ماركس عندما يتكلم عن «قوانين التطور الاقتصادي للرأسمالية»، ويصفها

تجمعها جميعاً وتحللها. كما أنه أعطى على نحو كافٍ ملاحظات تشير الى القناعة بأن معظم هذه الاتجاهات لم تغطّ بشكل كامل.

الآن ما هي السلبات؟ الخطأ الأول الأساسي لجدليته هو أنه لم يتعمق كفاية في مسألة العلاقة بين الجدلية كحركة حقيقية للبشرية والمجتمع والحقيقة التاريخية والطرق الجدلية التي تسمح بمعرفتها. هذا ما أدى، برأي غورفيتش، الى سوء فهم يتعلق بالقول «بوجود قوانين طبيعية للرأسمالية».

وبسبب التشديد على الصفة الواقعية لجدليته، توصل ماركس الى صياغات غير حذرة وتتجاوز تفكيره، مثل «المادية الجديدة»، و«التناج التاريخي ذو القاعدة المادية». يقول غورفيتش بأن هذه الصياغات دفعت بتلاميذه نحو الاعتقاد بأنهم أصبحوا محولين التكلم عن «مادية تاريخية» و«مادية اقتصادية» و«مادية جدلية». ولم تؤدّ هذه التعبيرات إلا الى سوء فهم والى تحوير في فكر ماركس. إضافة الى ذلك، يتحدث غورفيتش عن الغموض بين التحليل الجدلي والتحليل السببي، هذا الغموض الذي لم يتمكن ماركس من النجاح في الدفاع عنه.

الخطأ الثاني والذي يُعتبر في أساس الخطأ الأول، هو أن جدليته عبارة عن جدلية تصاعدية كجدلية الجدليين الذين سبقوه أمثال أفلوطين وهيغل. والخطأ الثالث هو أنها عبارة عن جدلية تبريرية تنتهي بالتنبؤ.

كيف يعلّل غورفيتش استخدام مصطلح المادية من قبل ماركس؟ يعتبر أن ماركس الشاب، ومن خلال واقعيته الجدلية، لا يرفض المادية فقط، إنما الحتمية الدقيقة أيضاً. وحين يقول بأن «المادية الجديدة» عنده تعني «المادية كمشايط تطبيقي»، فإنه لم يُحسن اختيار كلمة المادية، لأن المقصود جدلية واقعية. ويرى أن مصطلح «المادية الجديدة» يُفسّر بأسباب تاريخية. فهو

البحث. بهذا المعنى لا يعبرُ ظاهراً الأشياء عن جوهرها. وبهذا المعنى أيضاً، فالعلاقة الجدلية عبارة عن تجاوز للكائن المباشر. كما أن الكلية الملموسة لا تُعطي مباشرة للفكر.

ماذا يعني مفهوم الكل بالنسبة للوكاش؟ ليس عبارة عن «فكرة» أو عن عملية «جمع» للأجزاء، إنما هو عبارة عن علاقة جدلية ودينامية بين عناصره المختلفة. لا تعني هذه العلاقة الجدلية تأثيراً سببياً بسيطاً بين شيئين، إنما تأثير متبادل بين مختلف عناصر الكل. ووفق هذا الفهم، فالجدلية تعبر عن علاقة الأجزاء بالكل.

يرى لوكاش أن المنهج الجدلي يهدف الى كشف حقيقة المقولات. فهو يُبعد عنها طابع الثبات وطابع الشيء. ويقارن بين المنهج عند ماركس والمنهج عند هيغل، ويعتبر أن المنهج الأخير لم يتمكن من حل التناقض بين الفكرة والفرد، والنظرية والبراكسس، والذات والموضوع. وليست جدلية هيغل سوى مظهر للجدلية الداخلية الحقيقية للسيرورة التاريخية. ويتهمه بأنه لم يتجاوز كانط حول هذه النقطة. ويعتبر أنه لم يعترف بالمجتمع البشري كحقيقة أساسية. كما أنه لم يتوصل الى معرفة القوى المحركة للتاريخ، لأن محرك التاريخ، بالنسبة اليه، هو الفكر. ولم يتمكن من فهم جوهر الاقتصاد ومعنى العلاقات بين الأفراد. وبقي التناقض بين الفكرة والكائن. لكن على الرغم من ذلك، توجد جوانب ايجابية في جدليته، أهمها الجانب التاريخي الذي يمثل في محاولة اكتشاف معنى الحقيقة الملموسة. ويخلص الى أن المادية الجدلية أصبحت مسألة عملية بعد أن كانت مسألة نظرية عند هيغل، وأصبحت تهتم بشكل أساسي بالنشاط البشري المحسوس، أي بالكائن الاجتماعي كذات وموضوع في الوقت ذاته. وبهذا الأمر فالمادية الجدلية تتخطى المعرفة عند كانط حيث لا يمكن للذات أن تكون موضوعاً.

أحياناً بـ«الطبيعية»، فهو لا يقصد في الحقيقة قوانين عامة، إنما انتظامات ذات اتجاهات خاصة بالنظام الرأسمالي كنموذج خاص للبنية الاجتماعية. ويقول بأن ماركس، لم يتوقف في رأس المال عن مهاجمة الأحكام المسبقة للاقتصاد السياسي الكلاسيكي الذي يحول الظواهر والاتجاهات الخاصة بالاقتصاد الرأسمالي الى ظواهر واتجاهات عامة و«قوانين طبيعية». ويرى أنه، على الرغم من ذلك، فلا يحق له التحدث عن «قوانين طبيعية»، لأن القوانين أو الاتجاهات التي يجدها في النماذج المتنوعة للمجتمع ليست عامة وحتمية.

كيف يفهم جورج لوكاش المنهج الجدلي عند ماركس<sup>(19)</sup>؟ يعتبر أن الجدلية المادية، كما يسميها، تعني الجدلية بين النظرية والبراكسس، أو بين الفكرة والحقيقة، أو بين العالم المحسوس والوعي، أو بين الذات والموضوع. ويرى أن خطأ انجلز هو في عدم اشارته الى العلاقة الجدلية الأخيرة هذه. ويعطي للجدلية عند ماركس خاصية العلم الذي يدرس القوانين العامة للحركة، سواء تعلقت الحركة بالعالم الخارجي أم بالفكر البشري. وتمثل المادة الأساسية لهذه الجدلية في الحقيقة التاريخية الاجتماعية. ويعود سوء الفهم عند انجلز الى أنه وسّع من انتشار الجدلية بحيث وصلت الى معرفة الطبيعة. ويرى أن الجدلية تتناقض مع الوقائع المنعزلة والأنظمة الجزئية، وهي عبارة عن الوحدة الملموسة للكل. والخاصة الأساسية للوقائع هي الخاصية التاريخية.

كيف يكون الفهم الجدلي المادي بالنسبة للوكاش؟ يعتبر أن الوقائع لا تُعطي مباشرة، أي بمعنى آخر، لا تُفهم مباشرة من خلال التصورات التي يكوّنها الأفراد عنها. لذلك، يجب إخضاعها للمعالجة التاريخية الجدلية. يقتضي هذا الأمر التمييز بين التصورات والمفاهيم الصحيحة التي تعبر عن العلاقات موضوع

لذلك . كما علينا معرفة فكر ماركس ككل . وإذا  
تبعنا الوجة التي تطور نحوها هذا الفكر، فإننا لا  
نلاحظ وجود تناقضات مهمة . ما بدأه ماركس في فترة  
شبابه حاول التعمق به في مرحلة النضج . الا أننا،  
خلال فترة التطور هذه، نلاحظ بعض الأمور التي  
تبدو للقارئ وكأنها أمور متناقضة . من أهم هذه  
المسائل، تلك المتعلقة بإرجاع العلاقة الجدلية تارة الى  
قوى الانتاج وتارة أخرى الى العلاقات الاجتماعية .  
هذا ما أوضحه غورفيتش عندما حدّد الحالة الأولى  
تقريباً بفترة الشباب، والحالة الثانية بمرحلة النضج .  
ما هو موقف ماركس الفعلي من هذه المشكلة؟ ان  
مؤلفاته اللاحقة وبشكل خاص مؤلفاته الاقتصادية  
مثل رأس المال ومساهمة في نقد الاقتصاد  
السياسي، والتي جاءت كنتيجة أو كخلاصة لمؤلفاته  
ولتجاربه السابقة، يبيّن الدور الأساسي لقوى الانتاج  
في عملية التطور الاجتماعي أو التطور التاريخي، لكن  
دون إلغاء الأهمية المعطاة للعلاقات الاجتماعية . ما  
المقصود بذلك؟ يعني هذا الأمر أن العلاقات  
الاجتماعية تشكل الإطار العام الذي تتحرك ضمنه  
قوى الانتاج أو علاقات الانتاج . بكلام آخر، تشكل  
علاقات الإنتاج الشكل الأساسي في العلاقات  
الاجتماعية .

لم يتحدّد هذا الفهم للعلاقة الجدلية إلا على  
أساس فهم الواقع الملموس، وبالتحديد المجتمع  
الرأسمالي .

2 - يعتبر غورفيتش أن ماركس كان مخطئاً حين  
أعطى لمصطلح المادية معنى اقتصادياً .

في الحقيقة، حين يؤكد ماركس على الدور  
الأساسي لقوى الانتاج، فهو لا يلغي عملية التأثير  
المتبادل بين العناصر، كما لا يلغي التأثيرات الهامة  
للعناصر التي تشكل منها العلاقات الاجتماعية .  
لذلك لا يجوز القول بأن مصطلح المادية عنده يعبر

الآن ما هي نقاط الاتفاق والاختلاف بين  
غورفيتش ولوكاش من المادية والجدلية عند ماركس؟  
- نقاط الاتفاق: كلاهما يعطي للجدلية عند  
ماركس خصائص الواقعية والشمولية والكلية  
والتاريخية والدينامية والتغير والتأثير المتبادل والتنوع،  
والارتباط بالممارسة أو التطبيق .

- نقاط الاختلاف: النقطة الأولى: في حين يعطي  
غورفيتش للمنهج عند ماركس صفة الجدلية الواقعية،  
وفي حين يعتبر أن المادية لا تعبر عنه، فان لوكاش  
يعطيه صفة الجدلية المادية أو المادية الجدلية . النقطة  
الثانية: غورفيتش ولوكاش كلاهما يفهم جدلية  
ماركس على أنها جدلية بين الفكر والمادة . لكن في  
حين لا يعطي الأول أفضلية لأي من هذين  
العنصرين على العنصر الآخر، يعتبر الثاني أن العنصر  
الثاني هو العنصر المحدّد . النقطة الثالثة: في حين  
يقلّل غورفيتش من أهمية الجانب التاريخي والجانب  
الاقتصادي للوقائع الاجتماعية، يعتبر لوكاش ذلك  
أساسياً .

ان موقف ماركس من المادية والجدلية، كما ان  
موقف غورفيتش ولوكاش من ذلك، تستدعي بعض  
الملاحظات:

1 - صحيح أن ماركس، في العديد من مؤلفاته،  
يشدّد على العلاقة الجدلية بين الفكر والتطبيق، أو بين  
النظرية والممارسة البشرية، ومن منطلق ان الركيزة  
الأساسية لهذه العلاقة هي العلاقات الاجتماعية أو  
الحياة البشرية . وصحيح كذلك أنه لا يربط فقط بين  
العلاقات الاجتماعية أو الأشكال المختلفة لحياة الأفراد  
الاجتماعية والإنتاج أو نمط الانتاج أو شروط وجودهم  
المادية، إنما يقول بأن قوى الإنتاج هي التي تحدّد  
تطور العلاقات الاجتماعية . هل في هذا الأمر  
تناقض؟ إذا أردنا معرفة موقف ماركس من هذه  
المسألة، علينا ألا نفصل بين النصوص المخصصة



عن معنى اقتصادي فقط، وبالتالي لا يجوز اعتبار فهمه المادي للمجتمعات والتاريخ بأنه فهم اقتصادي بحت.

3 - يرى غورفيتش أن إحدى الحسنات عند ماركس تتمثل في اكتشافه سبعة أوجه للحركة الجدلية الحقيقية. غير أنه، برأي المؤلف نفسه، لم يتمكن من كشف كل الأوجه الخاصة بها.

حول هذه المسألة، يمكن القول ان دراسات وتحليلات ماركس، مع أنه كشف بشكل علمي الجوانب الأساسية للحركة الجدلية الحقيقية، أي للحركة المتعلقة بالحقيقة البشرية، وبشكل خاص المجتمع الرأسمالي، لم تكن كاملة، ولا تناولت مختلف التداخلات والتوترات والتناقضات، في كل تفاصيلها الدقيقة. كما لا يعني أنها قد استفدت المجتمع المذكور. فالتحليلات المتعلقة بالعصور السابقة مثلاً، البطريركي والاقطاعي والعبودي، لم تسمح له، بشكل كافٍ، بكشف الجوانب المختلفة للتداخلات والتناقضات التي كانت سائدة فيها.

يمكن تفسير ذلك بأن هذه العصور لم تكن حقيقة يمكن ملاحظتها مباشرة كالحاضر مثلاً. تجدر الإشارة هنا الى أن ماركس يعتبر أنه بالامكان معرفة الماضي من خلال الحاضر، وذلك لأن الحاضر هو نتيجة تطور الماضي، أو أن الحاضر هو عبارة عن الماضي، لكن في مرحلة معينة من تطوره. قد تبدو وجهة النظر هذه صحيحة. لكن تبقى المشكلة مرتبطة في إمكانية الفهم العلمي للتطور.

كما أن التحليلات المتعلقة بتداخلات وتناقضات المجتمع الرأسمالي، لم تكن كاملة بدورها، ولم تستفد هذا المجتمع، مع أنها كانت عميقة وعلى درجة بالغة من الأهمية. فالعديد من المواضيع التي حللها كانت تستدعي القيام بأبحاث جديدة وذلك بهدف التعمق وكشف ما يمكن كشفه، وإضافة ما يمكن إضافته،

وتعديل ما يمكن تعديله، وإلغاء ما يمكن إلغاؤه، ودحض ما يمكن دحضه، وتأكيد ما يمكن تأكيده، الخ. كما كانت هناك مواضيع عديدة بحاجة للدرس والبحث والتحليل، ولم تسنح له الفرصة كي يقوم بذلك. وكان يقوم دائماً بتحقيق تعديلات واكتشافات جديدة. هذا يدل على أن الأبحاث التي قام بها لا تعني أن العلم قد توقف عندها. فهو كان يشدد باستمرار على ضرورة وأهمية متابعة الدراسات بقصد معرفة الواقع. ونظراً لتوافق موقفه مع توجه العلم، كان على استعداد لتحقيق تعديلات وتغييرات في نظريته ومنهجه الجدلي إذا ما بين الواقع والعلم ضرورة ذلك.

ومن الطبيعي انطلاقاً من هذا الأمر، أن لا تشمل دراساته الرأسمالية من ألفها الى يائها، وبالتالي أن لا تعبر عن كل تعقيداتها في مختلف مظاهرها. ومن الطبيعي كذلك أن لا تشمل الحركة الجدلية عنده كل الأشكال الممكنة، مع أنها كشفت جوانب أساسية.

4 - إن أشكال العلاقة الجدلية التي تكلم عنها غورفيتش مثل التكامل، والعلاقة التضمينية المتبادلة، والتبادل في وجهات النظر والاستقطاب، الخ، وحيث اعتبر أن ماركس لم يعبر عنها جميعاً، ليست، في الحقيقة، أشكالاً منفصلة عن جدلية الفكر ونقيضها والجمع بينها، التي أخذ بها كل من هيغل وماركس. ويمكن ملاحظتها، أو استنتاجها، إذا ما وجدت صعوبة، في مؤلفات ماركس المختلفة، ومن خلال أمثلة حسية وواقعية.

5 - ما قاله ماركس في مقدمة رأس المال لا يدل على أنه استخدم الجدلية كطريقة للعرض، إنما كطريقة لتحليل محتوى الوقائع. ولا نرى شيئاً من التناقض في هذا الأمر.

6 حين يتكلم ماركس عن المنهج الذي استخدمه في أبحاثه ودراساته وتحليلاته، ويحدد المبادئ

جدليته جدلية تصاعدية، لكنها غير مرتكزة على تصورات ومفاهيم مسبقة. لقد سمحت بكشف الواقع الرأسمالي بشكل خاص، وواقع المجتمعات ما قبل الرأسمالية بشكل عام. معنى ذلك أنها غير مرتبطة بإرادة أو رغبة ذاتية، بل هي منسجمة مع حقيقة الواقع الاجتماعي وانتقاله من مرحلة الى أخرى. ومع أن صفتها التصاعدية تؤكد على حقيقة التطور، وبأن التاريخ دائماً في تقدم ونحو الأفضل، فهي لا تنفي حصول انتكاسات وردات مؤقتة الى الخلف.

بخصوص الصفتين التبريرية والتنبؤية، يمكن القول أن تبريرات ماركس حين برّر الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية والمجتمع الشيوعي حيث زوال الدولة والطبقات الاجتماعية، لم تكن، في الحقيقة، بمجملها ذات صفة فردية أو ذاتية. فالقسم الأعظم منها ارتكز على تحليلات واقعية للمجتمع الرأسمالي. ما يبدو أنه ذو صفة ذاتية هو الجزء المستند الى وصف المجتمع الشيوعي، وذلك لأن هذا المجتمع لم يكن حقيقة ملموسة بعد كالمجتمع الرأسمالي.

### الوعي والوجود

يربط ماركس بين الإنتاج المادي أو النشاط المادي للأفراد (انتاجهم وتجارتهم) والعلاقات الاجتماعية والسياسية. ماذا تعني العلاقات الاجتماعية؟ تعني التصورات، والوعي، والايديولوجيا أو الإنتاج الفكري كما يبدو من خلال السياسة، والقوانين، والأخلاق، والدين، والماورائيات، الخ.

ما هو الوعي؟ الوعي كما يعرفه ماركس «لا يمكن أن يكون شيئاً آخر غير الكائن الواعي». المقصود بهذا الأخير هو مجموع الأفراد في المجتمع بما لديهم من تصورات وأفكار، ومفاهيم، ولغة، وقانون، وفن، وتقنية وعلوم، الخ. بكلام آخر، يتمثل الكائن الواعي في العلاقات الاجتماعية.

والأسس التي ارتكز عليها، فهذا لا يعني أنه لم يفصل بين الجدلية كمنهج في البحث، والجدلية كحركة حقيقية للواقع البشري أو الاجتماعي. وحين يبدو ظاهرياً أن المنهج عنده غير منفصل عن الحقيقة أو الواقع، فهذا لا يُعتبر دليلاً على أنه يدمج بينهما، إنما هو دليل على أن المنهج المستخدم متوافق ومنسجم مع الموضوع، وعلى أنه لا توجد صفة اصطناعية له. بمعنى آخر، فالمنهج في هذه الحالة لا يُعتبر دخيلاً على الواقع.

7 - يقول غورفيتش بأن ماركس لم يوضح الفرق بين التحليل الجدلي والتحليل السببي. حول هذه المسألة يمكن القول بأن التحليل المستخدم من قبل ماركس هو التحليل الجدلي وليس التحليل السببي الإحادي الجانب. ففي جميع أبحاثه ودراساته تقريباً كان يُظهر عملية التأثير المتبادل بين العناصر المختلفة للحقيقة الاجتماعية أو البشرية، والعنصر الاقتصادي كعنصر محدد في هذه العملية. وحين يبيّن التأثير المتبادل بين الإنتاج والتوزيع والاستهلاك في المجتمع الرأسمالي مثلاً، وكيف تخضع العمليات الاقتصادية جميعاً للإنتاج، فهذا لا يعني بأن تفسيره إحدادي الجانب.

8 - يقول غورفيتش بأن ماركس يتحدث عن «قوانين طبيعية» للرأسمالية. في الحقيقة، حين يتكلم ماركس عن هذه القوانين، وفي الوقت نفسه يوضح بأن لكل مرحلة تاريخية قوانينها الخاصة، فهذا يعني أن القوانين التي تبدو طبيعية في المجتمع الرأسمالي، ما هي في الواقع إلا قوانين مؤقتة وعابرة. ولم يكن استخدام كلمة طبيعية من قبله من أجل اثبات حقيقة هذه القوانين، بل للدلالة على أنها تبدو للبرجوازيين كقوانين طبيعية، دائمة وأزلية.

9 - يقول غورفيتش بأن الجدلية عند ماركس هي جدلية تصاعدية وتبريرية وتنبؤية. مما لا شك فيه أن

للحياة المادية أو الاقتصادية في الحياة الاجتماعية، تعني جدلية ماركس هذه أن أية ظاهرة غير مفصولة عن قاعدتها الملموسة، أي عن النشاط العملي أو سيرورة التطور العملي للأفراد. من هذا المنطلق يجب فهم القانون مثلاً أو الدولة أو السياسة أو الملكية الخاصة، الخ. إن ربط جدلية ماركس بالإنتاج هو الذي يميزها عن جدلية هيغل، وبالتالي عن الفهم المثالي والمجرد للظواهر الاجتماعية. كما أن هذه الخاصية هي التي أعطت للفهم عند ماركس صفة التناقض الحقيقي مع النظريات والمفاهيم السابقة.

### جدلية قوى الإنتاج وعلاقات الانتاج

يفسر ماركس تطور المجتمعات على أساس جدلية قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، أي على أساس الشروط الحقيقية الملائمة للتاريخ البشري. يتناقض فهمه هذا مع فهم الفلاسفة الذين فسروا هذه السيرورة بشكل مثالي، أي كتطور «للإنسان»، أو كتطور للوعي، وذلك بعد أن جردوا الشروط الحقيقية، وحولوا العلاقات الحقيقية الى مجرد مفاهيم ثابتة في عقولهم<sup>(22)</sup>.

ما هي علاقات الإنتاج؟ تعني نمط التبادل<sup>(23)</sup> أو العلاقات الاقتصادية أو كل أشكال العلاقات التي تعمل على تنظيم الإنتاج، ويمكن هنا ذكر العلاقات الاجتماعية، أو علاقات الملكية والدولة والقانون، الخ. ما طبيعة هذه العلاقات؟ تتصف بأنها لا إرادية، كما تعتبر الركيزة الأساسية للبناء الفوقي وأشكال الوعي الاجتماعي. يقول ماركس: «في الإنتاج الاجتماعي لوجودهم، يدخل الأفراد في علاقات محددة، ضرورية، ومستقلة عن إرادتهم [...] ويشكل مجمل هذه العلاقات البنية الاقتصادية للمجتمع، الركيزة الحقيقية التي يُشيد عليها البناء القانوني والسياسي، والتي تتوافق معها

ما هي الايديولوجيا؟ تتمثل في البناء الفوقي القانوني والسياسي والفني والفكري والاخلاقي، الخ؛ أي في الأشكال الواعية واللواعية للوعي. كيف يمكن فهم وعي الأفراد؟ لا يمكن فهمه بدون ربطه بدرجة التطور التي بلغتها القوى المنتجة حيث هو محدد بها، أو بدون فهم سيرورة حياتهم الحقيقية، أي سيرورة حياتهم المعيشية. إذ هو نتيجة للأفراد أنفسهم، ومن إنتاجهم. بمعنى آخر لا توجد استقلالية لأشكال الايديولوجيا المختلفة. وليس لأي شكل منها تاريخ أو تطور خاص به، بل تاريخه وتطوره محدد بالإنتاج المادي للأفراد أو بعلاقاتهم المادية. يتلخص موقف ماركس هذا في العبارة المشهورة: «ليس الوعي الذي يحدد الحياة، بل الحياة التي تحدد الوعي»<sup>(20)</sup>. يعني هذا أن الأسبقية للحياة المادية كحقيقة اجتماعية، أي للأفراد الحقيقيين في حياتهم الحقيقية وفي تاريخهم الحقيقي الملموس. والوعي هو نتيجة لهذه الحياة. وهؤلاء الأفراد غير معزولين وغير مجردين، بل هم يعيشون في شروط محددة، وتخضع تطورهم الحقيقي لسيرورة محددة كذلك. يتناقض فهم ماركس هذا مع فهم التجريبيين الذين يعتبرون التاريخ كجمع لوقائع بدون حياة، أو مع فهم المثاليين الذين يرون في التاريخ فعلاً خيالياً لأشخاص خياليين<sup>(21)</sup>.

يبدو مما سبق أن الجدلية عند ماركس لا تركز على التأثير المتبادل بين الإنتاج المادي والعلاقات الاجتماعية والسياسية أو بين قوى الإنتاج والوعي فقط، بل على الإنتاج أو السيرورة الحياتية المعيشية للأفراد كعنصر محدد أيضاً. تجدر الإشارة هنا الى تناقض هذا المعنى مع ما فهمه غورفيتش عن هذه الجدلية حيث قال بأنها عبارة عن جدلية واقعية، أي دون إعطاء أهمية لعنصر على عنصر آخر. كما لا ينفي هذا المعنى تأثير الوعي ولا يقلل من أهميته، إنما يؤكد على التأثير الأساسي

الاقطاعي، وطاحونة البخار المجتمع الرأسمالي الصناعي<sup>(28)</sup>. ما قيمة جدلية قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج بالنسبة لماركس؟ يرى ضرورة عدم اعتبارها كجدلية مطلقة، أي تحديد حدودها، لأنه لا يتوجب إدخالها إلى الواقع بشكل اصطناعي. فالمسألة تبقى العمل على كشف التناقضات في الحقيقة الملموسة، وليس العمل على تفسيرها بشكل دوغمائي. من هنا كان تساؤله بخصوص الصعوبات أو التناقضات التي تنشأ من جراء العلاقة غير المتساوية بين تطور الإنتاج المادي وتطور الفن مثلاً، أو بين شروط الإنتاج والنظام القانوني. ويعطي أمثلة عن الفن اليوناني والفن عند شكسبير. ويعتبر أنه بالإمكان حل هذه الصعوبات أو هذه التناقضات عندما تتمكن من تحديدها<sup>(29)</sup>.

#### جدلية الاستلاب:

تأخذ جدلية الاستلاب عند ماركس أشكالاً مختلفة:

- الاستلاب من خلال وسائل الإنتاج والإنتاج وشروط العمل والعلاقات الاجتماعية: يقول ماركس بأن وسائل الإنتاج محتكرة من قبل فئة محدّدة من المجتمع، كما أن نتاج وشروط نشاط قوة العمل أصبحت مستقلة أمام هذه القوة الحية (أي الطبقة العاملة)، كما أصبحت ككائنات غريبة عنها. ويضيف بأن ما تحوّل إلى قوى مستقلة مهيمنة ليس نتاج العمل فقط بل القوى والعلاقات الاجتماعية، أي أشكال العمل. بكلام آخر، لم يعد التناقض مقتصرًا على المنتجين وإنتاجهم المادي، بل أصبح يتناول التعبيرات الاجتماعية لهذا الإنتاج<sup>(30)</sup>

الاستلاب من خلال العمل: يقول ماركس بأن العامل، من خلال غط الإنتاج الرأسمالي، يظهر كبائع سلع، وكعامل أجير حر، والعمل كعمل مأجور

أشكال محدّدة للوعي الاجتماعي<sup>(24)</sup>. كما لها صفة تاريخية. فالمجتمع القديم والمجتمع الاقطاعي والمجتمع البرجوازي يمثلون فئات معينة من علاقات الانتاج، وبشكل كل واحد منها مرحلة خاصة من التطور التاريخي للبشرية<sup>(25)</sup>. لماذا هذه العلاقات مستقلة عن إرادة الأفراد؟ لأن اجتماعهم من أجل تأمين حياتهم والحفاظ على بقائهم واستمرارية وجودهم لا يكون بناءً على إرادتهم، بل بناءً على ضرورة عيشتهم، ولأن الظروف المادية تجبرهم على ذلك. لهذا فان اجتماعهم له صفة طبيعية. تجدر الإشارة هنا الى أن هذه الفكرة لا تنفي تأثير الوعي على الظروف المادية. ولماذا تعتبر ركيزة أساسية لأشكال الوعي الاجتماعي؟ نظراً للدور الأساسي الذي تلعبه في الحياة الاجتماعية للأفراد. ما هي قوى الإنتاج؟ تعني كل ما يساهم في حصول الإنتاج، ويتمثل هذا الأمر في أدوات الإنتاج، والتقنية، والمواد الأولية، والثروات الطبيعية، والمعارف والقوى الحية (نشاط الأفراد)، إلخ.

لماذا تدخل قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج في صراع؟ بسبب عدم التوافق. يقول ماركس: «وعند درجة معينة من تطورها، تدخل القوى المنتجة المادية للمجتمع في صدام مع علاقات الإنتاج الموجودة، أو مع علاقات الملكية المعرّبة عنها قانونياً. وفي حين كانت هذه الشروط عبارة عن أشكال لتطور القوى المنتجة، تحوّلت الآن الى عوائق كبيرة<sup>(26)</sup>. عمّ ينتج عدم التوافق هذا؟ لا ينتج عن المرحلة الأولى من وجود علاقات الإنتاج حيث تعمل على تطور القوى المنتجة، إنما عن المرحلة الثانية من وجودها حيث تعمل على عرقلة وإعاقة تطورها. ما هو العنصر المحدّد في سيرورة الصراع بينهما؟ إنه قوى الإنتاج. فاخترع السلاح الناري مثلاً غير من البناء الداخلي للجيش<sup>(27)</sup>، كما أن طاحونة اليد أعطتك المجتمع

يتصف بالتبعية<sup>(31)</sup>. ما سبب هذه التبعية؟ طبيعة العلاقة بين العامل والرأسمالي. فمن خلالها، وبموجب عقد، لا يخضع العامل لخدمة الرأسمالي فقط، وإنما للارتباط به. كما تراجع عن أي حق له في ملكية إنتاجه الخاص، وذلك لأنه لا يملك إلا قوته الشخصية، أي العمل في حالة قوة، في حين أن الشروط الخارجية لإعطاء حياة لهذه القوة، والأدوات الضرورية لتحقيق ممارسة مفيدة للعمل، وامتلاك وسائل العيش الضرورية للحفاظ على القوة العاملة وتحولها إلى حركة منتجة، هي في يد الرأسمالي. إذن يصبح عمل العامل مستلباً وملكياً للرأسمالي<sup>(32)</sup>.

كيف يكون العامل مستلباً من خلال عمله؟ بقدر ما يستهلك نفسه من خلال العمل، بقدر ما يصبح قوياً، العالم الغريب، عالم الأشياء الذي يخلقه أمامه، وبقدر ما يصبح هو فقيراً. وهذا الأمر شبيه بما هو حاصل في الدين. إذ بقدر ما يترك الفرد نفسه للإله، بقدر ما لا يملك نفسه. ويضع العامل حياته في الشيء؛ ومنذ ذلك الحين، فإن حياته لا تعود إليه، بل إلى الشيء. وبقدر ما يكون النشاط كبيراً، بقدر ما يفقد من جوهره. وهو ليس ما ينتجه بواسطة عمله. إذ بقدر ما يكون هذا الإنتاج مهماً، بقدر ما تقل قيمته. ويصل إلى أن سلخ العامل عن نتاجه لا يعني فقط أن عمله أصبح شيئاً، وأخذ وجوداً خارجياً، إنما يعني أيضاً أنه أصبح قوة مستقلة وغريبة عنه. هذا يعني أن الحياة التي أعطاها العامل للشيء انتصبت أمام صانعها كقوة عدوة وغريبة. ويقول بوجود وجهين للعمل: فهو يصنع العجائب والقصور والجمال للأغنياء، لكن العوز والأكواخ القذرة والعاهات للعمال. ويضع الآلات مكان العمال، ويدفع بجزء من العمال نحو العمل البربري، ويحول الجزء الآخر إلى آلات. وينتج الفكر، لكن الحفاقة والغباوة بالنسبة للعمال<sup>(33)</sup>.

ما هو موقف العامل من الاستلاب الذي يتعرض له في العمل؟ يقول ماركس بأن العامل يعمل ليعيش. وليس النشاط الحي الذي يقوم به، بالنسبة إليه، سوى وسيلة للوجود. وهو يعتبر أن العمل سبب شقائه ويؤسه في الحياة. لهذا السبب، لا يُعتبر نتاج نشاطه هدفاً لنشاطه، بل تبدأ الحياة، بنظره، حين يتوقف هذا النشاط<sup>(34)</sup>.

ما مصدر استلاب العامل في العمل؟ العمل أو رأس المال. إذ لا يمكن تحقيق زيادة في رأس المال، بدون مبادله بالعمل، أي بدون خلق عمل مأجور. تجدر الإشارة هنا إلى أن الحاجات التي تتأمن للعامل من خلال زيادة محسوسة في الأجر لا تتغير من الوضع شيئاً، مقارنة مع الحاجات التي تتأمن للرأسمالي<sup>(35)</sup>. ويخلص إلى أن مصلحة رأس المال ومصلحة العمل في تناقض<sup>(36)</sup>.

- الاستلاب من خلال الملكية الخاصة واللاملكية: يقول ماركس بأن الملكية الخاصة جعلتنا حمقى ومحدودي العقلية بحيث أننا لا نعتبر هذا الشيء لنا إلا إذا امتلكناه، أي إذا وجد، بالنسبة لنا، كرأس مال، أو إذا امتلكناه مباشرة وأكلناه وشربناه ولبسناه، الخ. ، باختصار، إذا استخدمناه. ويضيف بأن حس الملكية حل محل كل الأحاسيس الفيزيائية والفكرية بحيث أن ملكية المال الذي يملك صفة شراء وامتلاك كل الأشياء، أصبحت الأكثر بروزاً بين كل الملكيات. مرة: فالشخص الذي لا يملك شيئاً، حالياً، لا يساوي شيئاً. كما لا تعبر عن حقيقة الإنسان. إنها تعني الروحانية البائسة والحقيقة الإنسانية وملكية الجوع والبرد والأمراض والجرائم والانحطاط والبلادة وكل ما هو متناقض مع الإنسان والطبيعة<sup>(37)</sup>.

- الاستلاب من خلال المال: يرى ماركس أن الإنسان، بدل أن يكون هو نفسه الوسيط مع الإنسان

الأشياء المجردة أيضاً. فالشرف مثلاً اكتسب شكل السلعة، وكذلك الوعي، الخ. لقد مضى العصر، يقول ماركس، حيث كان التبادل محدداً بالفائض من الإنتاج على الاستهلاك، وأتى الزمن حيث غدا كل شيء في التجارة والتبادل: الوجود الصناعي، الإنتاج والأشياء التي لم يحصل تبادلها أو بيعها أو شرائها مثل الفضيلة والحب والرأي والعلم والوعي، الخ. إنه عصر الفساد العام، والرشوة الشاملة، وإذا ما تكلمنا بلغة الاقتصاد السياسي، فإنه العصر أصبح فيه كل شيء أخلاقي أو فيزيائي ذا قيمة تجارية، وأدخل إلى السوق من أجل تحديد قيمته بدقة<sup>(40)</sup>.

ما هو الشكل الذي تأخذه أنماط العمل الاجتماعية بالنسبة للعمال الفرديين؟ تأخذ شكل أشياء غريبة عنهم، وسائل عمل غير مرتبطة بهم، وتهمين عليهم. وإذا خضعوا لرأس المال، يصبحون عنصراً منها، وبدون أن تعود إليهم. وتظهر لهم كأنها مرتبطة برأس المال، ومميزة عن قوة العمل.

ما يحدث بالنسبة للأنماط الاجتماعية للعمل، يقول ماركس، يحدث كذلك بالنسبة لقوى الطبيعة والعلم حيث تظهر أمام العمل كقوى لرأس المال، وحيث تنفصل عن حذاقة ومعرفة العامل الفردي، مع أنها من حيث الأساس نتيجة للعمل، وتظهر كأنها مرتبطة برأس المال. إن كل تطبيقات العلم ومنتجات العمل المرتكزة على العمل الاجتماعي تظهر بالنسبة للعمال كوسائل لاستغلاله، وكوسائل لامتلاك فائض العمل، باختصار، كقوى عائدة لرأس المال. كما أن تطور القوى الاجتماعية المنتجة للعمل وشروط هذا التطور تظهر كنشاط لرأس المال<sup>(41)</sup>. كيف يكون التحرر من الاستلاب؟ من خلال المجتمع الشيوعي حيث لا وجود للدولة والطبقات الاجتماعية. هذا ما عبر عنه ماركس من خلال مؤلفاته.

يبدو أن مفهوم الاستلاب عند ماركس أخذ معاني

الأخر، فإنه، من خلال المال كوسيط للتبادل، يرى إرادته ونشاطه وعلاقته مع غيره كقوة مستقلة عنه وعن الآخرين. وليس أمراً يدهش بأن يتحول هذا الوسيط إلى إله حقيقي، إلى قوة حقيقية على الأشياء، تستخدم الإنسان كوسيط. وتصبح عبادته هدفاً بحد ذاته. وتفقد الأشياء قيمتها إذا عزلت عنه. وتصبح ذات قيمة لأنها تمثله، في حين لم تكن له قيمة في البدء إلا في إطار تمثيله لها. وتصبح الملكية الخاصة مستلبة لأنها أصبحت خارج نفسها ومطرودة من نفسها.

يعتبر ماركس أن الشيء المستلب من قبل المال هو بالتحديد النشاط المتولد عن الأفراد والذي أصبح مفصولاً عنهم، بحيث تحولت خصائصه إلى هذا الوسيط. ويزداد التناقض قوة، بحيث أنه بقدر ما يزداد الإنسان فقراً، بقدر ما ينفصل عن هذا الوسيط، وبقدر ما يزداد هذا الأخير حجماً. ويرى أن العلاقة التبادلية التي يقيمها الإنسان على أساس المال كوسيط تبادلي هي علاقة غير إنسانية لأن القيمة المعطاة حقيقة هي للمال<sup>(38)</sup>. كيف أن القيمة الحقيقية في هذه العلاقة معطاة للمال وليس للإنسان؟ يقول ماركس بأن التبادل المتعلق بأشياء متعادلة ما هو إلا مظهر سطحي لإنتاج يرتكز على امتلاك عمل الغير. ويضيف بأنه لا يوجد تبادل، إنما مظهر للتبادل. كما لا شيء يدعو للاستغراب أن يكشف نظام قيم التبادل - تبادل لمعادلات مفاضة بواسطة العمل - عن أسسه الخفية بأنه امتلاك لعمل الغير بدون تبادل، وعبرة عن فصل كامل بين العمل والملكية. الفصل بين العمل والملكية هو الفصل بين العمل والشروط الموضوعية للعمل<sup>(39)</sup>.

- الاستلاب من خلال الأشكال الاجتماعية للعمل: بسبب تطور التجارة والتبادل، لم تقتصر السلع على الأشياء المادية فقط، بل شملت كل

يتكلم عن إمكانية ازالة تناقضات المجتمع الرأسمالي، وبالتالي ازالة مختلف أشكال العبودية المرتبطة به، من خلال المجتمع الاشتراكي أو الشيوعي، فهو لم يعبر عن إرادة فردية، بقدر ما يعبر عن تصور مركّز إلى وقائع تاريخية ملموسة.

بالنسبة للاعتراض الثاني، يمكن ارجاع الغموض، من ناحية، الى المعاني المختلفة لهذا المصطلح، ومن ناحية أخرى، الى طبيعته الفلسفية. بالنسبة للاعتراض الثالث، سبق وبيّنا أن التطورية عند ماركس ليست مفهوماً مسبقاً، بل حقيقة كشفها الواقع.

#### جدلية التناقضات الاقتصادية:

بعد أن يعرض ماركس طبيعة العلاقات بين العمل ورأس المال والأجر ورأس المال والتقنية والأجر وتأثير تقسيم العمل على الانتاج والعمال، يصل الى القول بتعارض مصالح رأس المال مع مصالح العمل المأجور. يبيّن هذه النتيجة من خلال أمثلة مادية عديدة. يقول بأن زيادة رأس المال لا تكون إلا على أساس تبادله مع العمل، أي بحصول عمل مأجور. ويعمل هذا الأخير، بتبادله مع رأس المال، على ازدياد وتقوية السلطة حيث يكون هو عبداً لها. وبالتالي، فتزايد رأس المال هو تزايد للبروليتاريا وللطبقات الكادحة. ويضيف أن المنافع الاجتماعية للعامل ازدادت مع ازدياد الغنى والحاجات، بسبب الزيادة المحسوسة والسريعة في الأجر وبالتالي في الرأسمال المنتج، لكن الارتياح الاجتماعي الذي تجلبه قد نقص مقارنة مع ازدياد منافع الرأسمالي، والتي لا يمكن للعامل بلوغها. كما أن تزايداً سريعاً لرأس المال يعادل تزايداً سريعاً للربح. ولا يمكن ازدياد الربح بسرعة إلا إذا انخفضت القيمة التبادلية للعمل، أو الأجر النسبي

مختلفة. فهو تارة يأخذ معنى النشاط الانتاجي ذي الصفة الموضوعية، الموجود خارج الفرد والمستقل عنه، وتارة أخرى معنى الهيمنة، إذ إن هذا النشاط الحي الصادر عن عمل العمال أو عن قوة عملهم يتحول الى قوة غريبة وعدوانية يعمل العمال على مجابهتها. ويأخذ أحياناً معنى فقدان المقدرة والقوة والطاقة، وأحياناً أخرى معنى واسعاً بحيث يشمل شروط العمل أو شروط الانتاج. ويشمل أحياناً كل الحياة الاجتماعية أو كل العلاقات الاجتماعية بمختلف تعابيرها المادية والمجردة. مع أن هذا المفهوم يأخذ عنده معاني عديدة، إلا أن مختلف هذه المعاني على علاقة جدلية. إذ لا يمكن، بالنسبة اليه، فصل الأشكال المختلفة للحركة الجدلية التاريخية.

ما هي الخاصية الأساسية لهذا المصطلح عند ماركس؟ يتميز بالواقعية. وبفضل هذه الصفة، تمكّن من تخلصه من الشوائب التولوجية والأخلاقية. ما هي اعتراضات غورفيتش على هذا المصطلح؟ يتمثل الاعتراض الأول في أنه إذا كان بالإمكان الأمل بأن نهاية النظام الرأسمالي سوف تجلب تغييرات معينة، فإنه ليس باستطاعتنا التأكيد بأن مجتمعات المستقبل سوف لا تعرف عيوديات جديدة. وبما أن ماركس يشدد على أن كل دولة هي تعبير عن الاستلاب، فإننا غير أكيدين من زوال الدولة فعلياً في ظل نظام جماعي. يتمثل الاعتراض الثاني في أن جدلية الاستلاب عنده، على الرغم من أهميتها، هي جدلية غامضة جداً، وفيها من الواقعية السوسولوجية والطوباوية النبوية. ويتمثل الاعتراض الثالث في أن هذا المظهر يكشف بوضوح أن جدليته هي جدلية تصاعدية وتبريرية<sup>(42)</sup>.

بالنسبة للاعتراض الأول، يمكن القول: مع أن التصورات التي أعطها ماركس بخصوص المجتمع الشيوعي لم تكن تصورات دقيقة، وهذا أمر طبيعي لأن هذا الأخير لم يكن حقيقة ملموسة بعد، فإنه حين

وهذه عبارة عن تبرير لصالح الأغنياء اللامنتجين و«العمال اللامنتجين»<sup>(44)</sup>.

أثارت التناقضات التي بيّنها رد فعل سلبي من قبل غورفيتش الذي اعتبرها مبنية على نحو اصطناعي تقريباً. أي أنها لم تُبنَ على أساس جدلية الحقيقة الاجتماعية، كما أن الجدلية هنا تدخلت كوسيلة لعرض استنتاجات توصل إليها ماركس خارج أية جدلية. ويرى غورفيتش أنه ليس بالإمكان دائماً إرجاع قوة العمل إلى سلعة<sup>(45)</sup>.

بخصوص النقطة الأولى، ما يلفت النظر هو أن غورفيتش لم يبيّن بشكل واضح الأماكن التي تبرز من خلالها الصفة الاصطناعية، مع العلم أن ماركس حاول كشف التناقضات الاقتصادية في المجتمع الرأسمالي كما هي في الواقع. فأعطى تحليلاً دقيقاً لها، وعمل على معرفة حقيقتها، وربطها بظروف موضوعية ومادية واجتماعية معينة، أي ببنية اجتماعية وتاريخية محددة.

بالنسبة للنقطة الثانية، رد ماركس بنفسه على موقف غورفيتش من خلال رده على الاقتصاديين البرجوازيين الذين حاولوا المساواة بين العمل المنتج والعمل اللامنتج، وذلك بهدف التقليل من أهمية الانتاج المادي الذي ينتجه العمال. يبين الواقع الرأسمالي حقيقة موقف ماركس هذا. إذ أن وجود الأجراء في المؤسسات غير الصناعية، والأجراء غير المنتجين في المؤسسات الصناعية، قائم على أساس الانتاج الذي يقدمه المنتجون الحقيقيون. كما أن بقاء وتطور هذه المؤسسات مرتبط بشكل أساسي بالانتاج. وحين تعتمد الدولة أو المجتمع الرأسمالي على التقليل من عدد الموظفين في بعض المؤسسات، أو إلى الزيادة في عددهم، أو في عدد الجنود، فهي لا تقوم بذلك إلا على ضوء واقع الانتاج.

بالنسبة ذاتها. من هذا الأمر يستتج أن العائد للعامل يزداد مع النمو السريع لرأس المال، غير أن الهوة الاجتماعية بين العامل والرأسمالي تتسع في الوقت ذاته، وتقوّي بالتالي من قوة رأس المال إزاء العمل، ومن الروابط بينها. وينفي أن يكون للعامل مصلحة في النمو السريع لرأس المال. ذلك أن هذا الأمر يمكن أن يحسّن من الحياة المادية للعامل، لكنه لا يلغي التناقض بين مصالحه ومصالح البرجوازيين، أي مصلحة الرأسمالي. كما أن زيادة الأجر بسبب الازدياد السريع لرأس المال تؤدي إلى زيادة أكبر في ربح رأس المال، ويتحسن الوضع المادي للعامل، إنما على حساب وضعه الاجتماعي. وتزداد الهوة التي تفصله عن الرأسمالي<sup>(43)</sup>.

إضافة إلى التناقض الأساسي بين العمل ورأس المال، يمكن ذكر التناقض بين العمل المنتج والعمل اللامنتج. حول هذه المسألة، يرى ماركس أنه لا يجوز الخلط بين الأعمال المنتجة والأعمال اللامنتجة. تجدر الإشارة هنا إلى قول جرمان غارنييه Germain Garnier بأن كل الأعمال هي أعمال منتجة، وأنه ليس من الضروري أن تتحدد في شكل معين للسلعة. يجيبه ماركس بأن الأعمال اللامنتجة مدفوع ثمنها من أجور العمال أو ربح مستخدميهم. ويضيف بأن هذا المؤلف نسي أن العمال المنتجين هم الذين خلقوا القاعدة المادية لبقاء ولوجود «العمال غير المنتجين». المقصود بالعمال غير المنتجين هنا هو الأجراء الذين لا ينتجون سلعة مادية، أي الأجراء في مختلف المؤسسات غير الصناعية. ويرى أن وجهة نظر الاقتصاد البرجوازي التي تعتبر الاستهلاك كحافز ضروري للانتاج، وترى بناءً على ذلك، أن الأجراء الذين يعيشون من العائد، العمال اللامنتجون، هم منتجون كالعمال المنتجين، على أساس أنهم يعملون على توسيع ميدان الاستهلاك المادي وميدان الانتاج،



## جدلية الطبقات الاجتماعية:

اجتماعية مختلفة عن شروط المجتمع الإقطاعي أو عن شروط المجتمع القديم. والطبقتان الأساسيتان في المجتمع الحديث هما: البرجوازية والبروليتاريا. ويعلل وجود المجتمع البرجوازي بتطور القوى المنتجة داخل المجتمع الإقطاعي: البخار والآلة وتأثيرهما على الإنتاج الصناعي، الخ. ويعطي وصفاً دقيقاً وعميقاً للطبقة البرجوازية. يحلل علاقتها بالدولة ويبيّن أن الحكومة الحديثة ليست سوى لجنة تدير المصالح المشتركة للطبقة البرجوازية بأكملها. ويتحدث عن دورها عبر التاريخ، ويظهره على أنه كان دوراً ثورياً بارزاً تمثل في القضاء على العلاقات الإقطاعية والبطيركية والثالية.

ويبيّن كيف أنها غيرت من المفاهيم السائدة بحيث أن قيمة الفرد مثلاً، وبسبب حرية التجارة، أصبحت مجرد قيمة تبادلية. وكيف أن مكان الاستغلال القديم الذي كانت تغطيه الأوهام الدينية والسياسية وضعت استغلالاً جديداً ومفتوحاً ومخزياً ومباشراً ووحشياً. وكيف أنها أزاحت طابع القدسية والاحترام عن النشاطات. وكيف جعلت من الطبيب والقانوني ورجل الدين والشاعر والعالم أجراء لحسابها. وكيف حولت العلاقات داخل العائلة الى علاقات ذات طابع نقدي. وكيف كشفت عن مقدرة النشاط البشري. وكيف أقامت انقلاباً في الانتاج وفي كل النظام الاجتماعي. وكيف اجتاحت الكرة الأرضية بأكملها، وأعطت الانتاج والاستهلاك صفة عالمية، وأزالت عن الصناعة قاعدتها الوطنية، واستبدلت الحاجات القديمة بحاجات جديدة، وغيّرت الانتاج الفكري. ويبيّن كيف أنها تعمل على إجبار الأمم على تبني نمط إنتاجها البرجوازي، وعلى إخضاع الريف للمدينة، والغاء تفتت وسائل الانتاج والملكية، وإلغاء انتشار السكان. وكيف أن إجراءاتها تؤدي الى التمركز السياسي والاقتصادي<sup>(47)</sup>.

يربط ماركس بين الهيمنة المادية والهيمنة الفكرية للطبقة، يقول: «ليست الأفكار المهيمنة سوى التعبير الفكري عن علاقات مادية مهيمنة، إنها هذه العلاقات المادية المهيمنة، أي التعبير عن العلاقات التي تجعل من طبقة طبقة مهيمنة، إنها أفكار هيمنتها». ويعطي أمثلة عديدة لتوضيح فكرته فيقول بأنه حيث كانت الهيمنة للأرستقراطية، المقصود الهيمنة المادية فيما يتعلق بنمط الانتاج الإقطاعي، فإن مفاهيم الشرف والإخلاص هي التي كانت مهيمنة، الخ.، بينما في الزمن حيث الهيمنة للبرجوازية، فيما يتعلق بنمط الإنتاج البرجوازي، فإن مفاهيم الحرية والمساواة هي المهيمنة، الخ. ويؤكد أن عدم ربط الأفكار المهيمنة في عصر معين بشروط الانتاج يعني القيام بعملية تجريد للأفراد والظروف التي هي في أساس هذه الأفكار. وبدأ المؤرخون، يقول ماركس، منذ القرن الثامن عشر، يصطدمون بهذه الظاهرة، بأن الأفكار المهيمنة أصبحت أكثر فأكثر مجردة. وأصبحت كل طبقة جديدة أخذت الموقع الذي كانت تحتله الطبقة السابقة، مجبرة، من أجل أهدافها، تصوير مصلحتها كمصلحة مشتركة لكل أعضاء المجتمع؛ وعلى المستوى الفكري، أصبحت مجبرة على إعطاء أفكارها شكل الشمولية، وعلى تصويرها بأنها الأفكار الوحيدة المعقولة، والوحيدة المشروعة عالمياً. يؤكد ماركس على أنه من الوهم الاعتقاد بعدم ربط الأفكار المهيمنة لطبقة معينة بالظروف المادية أو بنمط الإنتاج أو بالنظام الاقتصادي الاجتماعي<sup>(46)</sup>.

يربط ماركس تكوّن الطبقات الاجتماعية عبر التاريخ بشروط اجتماعية متنوعة (تقسيم العمل، شروط الإنتاج والظروف المادية). وهذه الشروط نفسها هي السبب في وجود تراتبية داخل كل طبقة. وتوجد في المجتمع البرجوازي الحديث شروط

لآخر، على بيع أنفسهم، لأنهم سلعة تجارية كغيرها من السلع. وهم معروضون بالتالي لكل تقلبات المنافسة والسوق. ويبين كيف أن الآلية وتقسيم العمل يفقدان عمل العامل أية خاصية استقلالية. فالمنتج يصبح مجرد تابع للآلة، ولا نطلب منه إلا العملية الأكثر بساطة والأكثر رتابة، والأكثر سرعة من حيث تعلمها. وبلغ ما يتقاضاه العامل ثمن ما يتوجب الحصول عليه كي يستمر في الحياة ويبعد عنه شبح الموت.

وكثمن أية سلعة، فثمة العمل (ثمن قوة العمل) يساوي تكاليف إنتاج هذه السلعة. ويرى أن العمال ليسوا عبيداً للطبقة البرجوازية والدولة البرجوازية فقط، إنما للآلة ولرؤساء العمال أيضاً. ويعتبر أن الشرائح الدنيا من الطبقات الوسطى، من صناعيين وتجار وحرفيين وفلاحين سوف تهبط الى مستوى البروليتاريا، من ناحية لأن رؤوس أموالهم الخفيفة لا تسمح لهم باستخدام طرق الصناعة الكبرى، وهم، في المنافسة فيما بينهم، يضطرون للخضوع أمام كبار الرأسماليين، بسبب القيمة المتدنية لمهارتهم التقنية قياساً مع الطرق الجديدة للإنتاج من ناحية أخرى. ويعمل تطور الصناعة، يقول ماركس، على جمع العمال في مجموعات أكثر حجماً، ويزيد من قوتهم. ويقدر ما تلغي الآلة أي فرق في العمل وتجعل الأجر متدياً في أي مكان، فإن مصابيح وشروط الحياة وسط البروليتاريا تتساوى أكثر فأكثر. وبسبب المنافسة المتزايدة بين البرجوازيين، والأزمات التجارية التي تنتج عن ذلك، تصبح الأجور أكثر فأكثر غير مستقرة. كما أن التطور الدائم والثابت والسريع للآلة يجعل ظروف العامل متقلبة أكثر فأكثر.

يرى ماركس أن الطبقة العاملة هي الطبقة الثورية في المجتمع، وذلك بسبب ظروفها المادية والاجتماعية. وعند الاقتراب من ساعة الحسم، فإن فئة صغيرة من

يتحدث ماركس عن دور المال وخصائصه الأساسية في النظام البرجوازي، وكيف يغير في طبيعة القيم الاجتماعية، بحيث يعود قرار الفرد للمال الذي يملكه، وتحول البشاعة الى جمال، والخيب وعدم الشرف الى شرف، والوقاحة الى حياة، وعدم الفكر الى فكر، والشر الى خير، الخ<sup>(48)</sup>.

ويتناول بالتحليل التناقض داخل النظام البرجوازي فيقول بأن تطور القوى المنتجة في هذا النظام سوف يؤدي الى اصطدامها بالشروط البرجوازية للإنتاج والتبادل، أو بالنظام البرجوازي للملكية، وذلك لأن هذه الشروط لم تعد تتوافق مع درجة تطورها. كما هو الأمر بالنسبة لقوى الإنتاج التي تطورت داخل النظام الإقطاعي للملكية والتي اصطدمت بشروط الانتاج والتبادل في هذا النظام لعدم توافقها مع درجة تطورها. ويتمثل الشيء الذي يظهر عجز النظام البرجوازي على مواكبة تطور القوى المنتجة في الأزمات التجارية وأزمة فائض الإنتاج. وهكذا، فالطبقة البرجوازية تصبح غير قادرة على القيام بدورها وفرض شروط وجود طبقتها. فلا يعود بإمكانها الحكم لأنها أصبحت غير قادرة على تأمين وجود عبدها في إطار عبوديتها، ولأنها أصبحت مجبرة على تركه يسقط لحظة وجوب إطعامه بدل أن يطعم نفسه بنفسه. وأصبح المجتمع غير قادر على العيش تحت سيطرتها. هذا يعني أن وجود البرجوازية لم يعد متوافقاً مع وجودها.

بخصوص وصفه للطبقة العاملة، يمكن القول أن ماركس لم يتوسع في هذا الموضوع كما حصل الأمر بالنسبة للطبقة البرجوازية، وذلك لأسباب تاريخية تتعلق بالتكون الحديث للطبقة العاملة. يقول ماركس بأن نمو هذه الأخيرة، إحدى الطبقتين الأساسيتين في المجتمع البرجوازي، مرتبط بنمو رأس المال من خلال العمل. ويرى أن هؤلاء العمال مجبرون، من يوم

الاجتماعية والطبقية. وسمح له الواقع الاجتماعي البرجوازي، أو بمعنى آخر، أنتاح له الفرصة كي يتعمق في واقع البرجوازية أكثر من تعمقه نسبياً في واقع البروليتاريا. وهذا الموقف عائد، كما ذكر غورفيتش نفسه، للظروف التاريخية التي مر بها المجتمع الرأسمالي. ولا يقلل هذا الموقف من أهمية التحليل الذي أعطاه ماركس للطبقة العاملة.

- تتمثل النقطة الثانية في الدمج بين الجدلية والشرح وبين الجدلية كحركة حقيقية والجدلية كطريقة لفهم أو لشرح هذه الحركة. إذا تتبعنا الشروحات والتحليلات التي قام بها ماركس سواء أكانت تتعلق بمواضيع اقتصادية أم اجتماعية، ومن خلال مؤلفاته المتنوعة، فإننا نلاحظ وبوضوح المنطلقات أو المعايير التي كان يحددها (مثل: الإنتاج، البعد التاريخي، النظرة الشمولية، التأثير المتبادل وتجاوز التناقضات، الخ) من أجل القيام بدراسات وأبحاث علمية. ففي مقدمة الطبعة الألمانية الثامنة لرأس المال، ومقدمة مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي، وفي كتابه بؤس الفلسفة حيث يوجد فصل خاص بالمنهج، يحاول إعطاء صورة عن المنهج العلمي المتوجب الأخذ به إذا ما أراد الباحث القيام بدراسات معينة. ويعلّل بشكل منطقي وعلمي الأسس النظرية والتطبيقية لأية دراسة اجتماعية، أو لأية دراسة تتعلق بموضوعها بالاقتصاد السياسي. ويعرض وجهات نظر ونظريات عديدة، ويعمل على تحليلها ونقدها وإبراز ما هو إيجابي وسلبى فيها، وهذا ما بدأ من خلال نقده للفلاسفة والاقتصاديين البرجوازيين أمثال سميث وريكاردو وهغل وفورباخ وبرودون الخ. معنى ذلك أن لديه تصوراً واضحاً عن الجدلية كحركة حقيقية ملازمة للحقيقة الاجتماعية وعن الجدلية كمنهج أو كطريقة علمية لفهم هذه الحقيقة. وإذا بدأ للقرّاء حصول دمج بين المنهج والواقع، فمرد ذلك هو الانسجام

الإيديولوجيين البرجوازيين سوف تنضم اليها، كما انضم قسم من النبلاء الى الطبقة البرجوازية. والطبقات الأخرى في المجتمع غير ثورية. فالطبقات الوسطى مثلاً محافظة، بل وأكثر من ذلك رجعية. إنها تعمل على إرجاع عجلة التاريخ الى الوراء. وهي لا تصبح ثورية إلا إذا تخلّت عن وجهة نظرها وانتقلت الى وجهة نظر البروليتاريا. وفيما يتعلق بالرعاع أي الطبقة أو الفئات ما دون البروليتاريا، فهم يتميزون بالعفوية ويؤخذون بحركة الثورة البروليتارية، لكن، بسبب شروط حياتهم، يضطرون ليع أنفسهم للرجعية<sup>(49)</sup>.

ما هو موقف غورفيتش من الجدلية الطبقيّة لماركس؟ يرى غورفيتش أن ماركس ركّز على جدلية البرجوازية أكثر مما ركز على جدلية الطبقة العاملة. وفسر هذا الأمر بأن جدلية العلاقة بين البروليتاريا ككلية حية والأجهزة المتعددة لتنظيماتها، وفتاتها المختلفة وعلاقتها مع الدولة البرجوازية، والبروليتاريا أو القيصرية، لم تكن ظاهرة بوضوح في عصر ماركس. ويعتبر أن ماركس يدمج بين الشرح والجدلية، في حين ليس باستطاعة أية جدلية تقديم أي شرح إذا لم تفهم كحركة واقعية أو كطريقة لدراسة هذه الحركة. ويقول أن ماركس ومحازبيه بالغوا في قوة الجدلية، وتأثروا بالمفهوم الغامض «للجدلية التاريخية». ويتهم جدلية الطبقة العاملة عنده بأنها جدلية تصاعدية وتنبؤية، وبأنها عبارة عن انتصار للنقيض وليس للجمع بينه وبين الفكرة<sup>(50)</sup>.

يستدعي موقف غورفيتش هذا الملاحظات التالية:

- فيما يخص النقطة الأولى، أي إعطاء الأولوية من قبل ماركس لجدلية الطبقة البرجوازية، يمكن القول أنه، في الحقيقة، لم يتعمد إعطاء أهمية لجدلية على حساب جدلية أخرى. كل ما في الأمر أنه حاول معرفة الواقع الرأسمالي بتناقضاته المادية وتعبيراته

والتوافق بينها، وليس عكس ذلك. وأي توافق بين المنهج والموضوع لا يلغي حصول ثغرات في التحليل والشرح، لأن أية تحليلات وشروحات للواقع، لا تُعتبر، باعتراف ماركس نفسه، تحليلات وشروحات كاملة. فهي عرضة للتعديل والنقض إذا ما أثبت الواقع ضرورة ذلك. مما لا شك فيه أن ماركس حين يوضح للباحث المنهج المتوجب اعتماده، فهو على يقين بأن استخدام هذا المنهج هو بهدف الشرح ومعرفة الحقيقة، وبالتالي فهو لا يدمج بينه والحقيقة.

- القول بغموض الجدلية التاريخية عند ماركس لا يقتضي عدم إعطاء أهمية للتاريخ في فهم الظواهر الاجتماعية. من الواضح حول هذه المسألة أن البعد التاريخي هو بعد أساسي في فهم الواقع الاجتماعي بأشكاله المختلفة، لأن الواقع، بتغيره وتطوره، هو حقيقة تاريخية.

- بخصوص القول أن جدلية الطبقة العاملة هي جدلية تصاعدية وتنؤية، فالحقيقة هي أن ماركس حين أعطى للطبقة العاملة دوراً تاريخياً في إلغاء النظام الاجتماعي البرجوازي وإقامة نظام اجتماعي جديد خالٍ من الطبقات والتناقضات، فإن تصوره هذا لم يكن وهماً وخيلاً، بل ارتكز على أسس موضوعية كامنة في المجتمع الرأسمالي. لذلك فالقول بأن الطبقة العاملة سوف تغير الواقع الاجتماعي رأساً على عقب، وبأنها سوف تخلص البشرية من الظلم والقمع والاستغلال، الخ.، لا يُعتبر قولاً معبراً عن إرادة شخصية أو رغبات فردية، بل هو مرتكز على حقيقة ملموسة، على التناقض بين العمل ورأس المال، وعلى أنه لا بد من انتصار العمل.

الجانب الغامض بعض الشيء في جدلية الطبقة العاملة لا يعود إلى إمكانية الدور الذي ستقوم به، بل إلى طبيعة المجتمع الشيوعي الذي ستقومه، لأن هذا المجتمع لم يدرسه فعلياً ماركس. ما أعطاه

بخصوص الجدلية التاريخية عند ماركس كل الأشكال المختلفة للجدلية، وهي تعني جدلية الحقيقة الاجتماعية الملموسة وجدلية المنهج المتبع لفهم هذه الحقيقة. تتمثل الجدلية الأولى في حركة الواقع الاجتماعي، أو في تغيره وتطوره، والثانية في المعايير المتوجب اتخاذها لفهم هذا الواقع. يُعبر عن هذه المعايير بالأبعاد الأساسية التالية: البعد المادي، البعد التاريخي، والبعد النسبي.

ما هو الانتقاد الذي يوجهه غورفيتش إلى هذه الجدلية؟ يقول بأنها عبارة عن جدلية أخروية، وطوباوية، وتنصف كذلك بالدوغمائية. يبرر صفة الدوغمائية بأن ماركس لم يشدد كفاية على الفرق الموجود بين «الحقيقة التاريخية» ووعي هذه الحقيقة في المعرفة التاريخية أو في علم التاريخ. لذلك فالجدلية التاريخية عنده تخفي موقفاً فلسفياً للتاريخ. ويضيف إلى هذا الاتهام أن جدليته لا تحتوي على جمع بين الفكرة ونقيضها، إنما على تناقضات<sup>(51)</sup>.

سبق وتمت معالجة هذه المسائل. لكن فيما يتعلق بمسألة الدوغمائية، ومن أجل تأكيد الفكرة بأن ماركس ميّز بوضوح بين المنهج والحقيقة الاجتماعية أو التاريخية، نذكر بعض القواعد النظرية المهمة التي انطلق منها:

١ - تتمثل القاعدة النظرية الأولى في الانتاج، يعتبر ماركس أنه إذا أردنا كتابة التاريخ، علينا الانطلاق من القاعدة الحقيقية للتاريخ أي من الانتاج المادي. أي من العلاقات بين الإنسان والإنسان، والإنسان والطبيعة. وإذا حصل استبعاد لهذا العنصر، فالتاريخ لن يكون تاريخاً حقيقياً<sup>(52)</sup>. نستنتج من ذلك بوضوح أن القاعدة النظرية الأساسية التي

عن الإنتاج متابعة مختلف المراحل التاريخية التي يمر فيها. ويعارض الاقتصاديين البرجوازيين الذين رأوا في الإنتاج مفهوماً مجرداً عن التاريخ، فيقول بأن المفهوم المجرد للإنتاج يدل ويحدد فعلياً النقاط المشتركة، لكن هذه الخصائص العامة أو النقاط المشتركة ترتبط بالواقع بشكل متنوع. المقصود بذلك أن هذه الخصائص ترتبط بالواقع من خلال مراحل تاريخية مختلفة. ويضيف بأن بعض هذه الخصائص يعود لكل العصور، والبعض الآخر لبعض هذه العصور. وبهذا المعنى ينفي أن يكون الإنتاج خاضعاً لقوانين أبدية للطبيعة ومستقلة عن التاريخ. باختصار، يقول بأن كل مستويات الإنتاج لها بعض النقاط المشتركة التي يعتبرها الفكر نقاطاً عامة، لكن الشروط المسبقة عامة لأي إنتاج هي عبارة عن عناصر مجردة لا تسمح بفهم أية مرحلة تاريخية حقيقية للإنتاج<sup>(55)</sup>.

٣ - تتمثل القاعدة النظرية الثالثة في البعد الشمولي والترابط بين العناصر على أساس هيمنة العنصر المادي. فمثلاً، يربط ماركس بين الإنتاج والتوزيع والاستهلاك، وهذا ما يميّزه عن الاقتصاديين البرجوازيين. ويقول بأن كل واحد من هذه المفاهيم يشكل عنصراً من كل وتنوعاً داخل الوحدة. ويعتبر الإنتاج عنصراً مهيماً وذلك لأنه يتجاوز قطاعه الضيق الخاص به، كما يتجاوز عناصر المجموعة. وبالنتيجة، فأي إنتاج يحدد أي استهلاك وأي توزيع وأي تبادل وكل العلاقات المحددة بين مختلف هذه العناصر. ويتغير الإنتاج نظراً لارتباطه بعناصر أخرى. ويخلص إلى أنه يوجد تجاذب بين كل هذه العوامل، وهذه حالة أية مجموعة عضوية<sup>(56)</sup>.

- الاهتمام المتمثل في أن الجدلية التاريخية عند ماركس لا تحتوي على جمع بين الفكرة ونقيضها، إنما على تناقضات، يتركز في الحقيقة على جدلية هيغل

ينطلق منها في فهم التاريخ هي الانتاج المادي. ولتأكيد هذا الموقف يتعرض بالنقد للمفكرين الفرنسيين والانكليز الذين يفسرون التاريخ بالوهم السياسي، وللمفكرين الألمان الذين يفسرونه «بالفكر الخالص» ويجعلون من الوهم الديني القوة المحركة للتاريخ. وكذلك يتعرض بالنقد للقديسين سان برينو Saint Bruno وماكس سترنر Max Stirner اللذين يفسران التاريخ بالفكر، وهيغل الذي اعترف بنفسه، في كتابه فلسفة التاريخ، أنه «تفحص تطور المفهوم». ويعلل موقفه المادي هذا بأنه لا يجوز الفصل بين الأفكار والأفراد الماديين وشروطهم التجريبية، وفهم هذه الأفكار «كمفهوم مستقل». كما لا يجوز استخراج العلاقات البشرية من مفهوم الانسان، أو أن تتمثل هذه الأفكار في مجموعة من الأشخاص، «المفكرين» أو «الفلاسفة»<sup>(53)</sup>.

٢ - تتمثل القاعدة النظرية الثانية في البعد التاريخي. ويتمثل هذا الموقف في جملة مسائل:

أ - الإنسان كتاج تاريخي: يعتبر ماركس أن أبرز الاقتصاديين البرجوازيين: سميث وريكاردو، الخ.، لم يتمكنوا من فهم إنسان القرن الثامن عشر فهماً صحيحاً، أي كتاج للتاريخ والأشكال الاجتماعية الاقتصادية والقوى المنتجة الجديدة، إنما فهموه كمثالية، أي كمعطى طبيعي يتوافق مع الفكرة التي كونوها عن الطبيعة البشرية.

ب - عدم تجاهل التاريخ: في رسالة الى ماركس، كتب إنجلز بأن ريكاردو عندما وصف ولادة وتطور الربيع، لم يربطه بعلاقات مع التاريخ، ذلك أن الاقتصاديين القدماء لا يريدون معرفة شيء عن التاريخ<sup>(54)</sup>.

ج - الإنتاج مفهوم تاريخي: يرى ماركس أن هذا المفهوم مرتبط بمستوى محدد أو بتطور محدد للمجتمع، وبأفراد يعيشون في مجتمع معين. ويقضي التحدث

موجود كذلك في المجتمع وليس في الأشياء التي تولد عند الانسان الارتياح. ومخلص الى أن هذه الحاجات، بما أنها ذات مصدر اجتماعي، فهي حاجات نسبية من حيث طبيعتها<sup>(59)</sup>.

خاتمة:

نستنتج مما سبق أن المنهج الجدلي عند ماركس هو منهج نسبي وواقعي. إذ لكل لحظة من لحظات الواقع المتغير وضع مميز يفترض وجود تعديلات عليه. والنظرية المرتكزة اليه لا تُعتبر مذهباً فلسفياً أو بناءً نظرياً إيديولوجياً، بل نظرية علمية للمجتمع الرأسمالي. لكن ليست هذه النظرية غير خاضعة للنقد أو التعديل.

أين تتمثل الإيجابيات والسلبيات عند ماركس؟ تتمثل الإيجابيات في الاكتشافات التي حققها. إذ ربط بين الظواهر الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية واعتبر ان هذه الظواهر لا تُعبر عن أشياء، بل عن علاقات بين أفراد. لذلك فهو يقول إن مصدر الغنى مثلاً لا يعود الى الأرض ورأس المال، إنما الى العمل الإنتاجي للأفراد والمجتمعات. كما حدّد بوضوح المنطلقات أو المعايير المتوجب أخذها في الاعتبار، مثل: - البعد التاريخي - النظرية الشمولية - الإنتاج كمتغير ثابت نسبياً - ربط المادة بالفكر. . . وربط النظرية بالممارسة الاجتماعية. الخ. وتتمثل السلبيات في الأمور الآتية: 1- لم يتعمق كفاية في تحليله ودراسته للمجتمعات السابقة على المجتمع الرأسمالي. تجدر الإشارة هنا الى أن دراسته للحاضر تكشف جوانب مهمة من الماضي، لكن لا تكشف بعمق حقيقة هذا الأخير لأنه لم يشكّل موضوعاً حسيماً خاضعاً للمراقبة المباشرة. 2- مع أن النظرية التي اعتمدها شكّلت نظرية علمية وموضوعية للمجتمع الرأسمالي، فهي لا تُعتبر نظرية كاملة. فهناك جملة من

كمقياس أو كمنطلق نظري للتطبيق الجدلي عند ماركس. في الواقع، لم يعط ماركس الاهتمام الكافي لهذه المسألة، لأن ما يُعتبر مهماً بالنسبة اليه هو الجدلية التطبيقية، أي جدلية الحقيقة الملموسة. لذلك قال بتجاوز التناقضات لأن هذا ما يحدث فعلياً في الواقع الاجتماعي التاريخي.

### اكتشافات ماركس

يبين إنجلز في مقدمة مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي أن الحدث المهم الذي اكتشفه ماركس فيما يتعلق بالاقتصاد والذي سبّب إرباكاً في عقول الاقتصاديين البرجوازيين، يتمثل في أن الاقتصاد لا يعالج أشياء، بل علاقات بين أشخاص، وإذا صح القول لعلاقات طبقية. وترتبط هذه العلاقات بأشياء وتظهر كأشياء. ولم يتمكن الاقتصاديون البرجوازيون من كشف هذا الترابط بين الأشياء والعلاقات الاجتماعية، وماركس هو أول من اكتشف قيمته بالنسبة للاقتصاد، وذلك بتبسيطه وتوضيحه المسائل الأكثر صعوبة، بحيث يمكن للاقتصاديين البرجوازيين الآن فهم ذلك<sup>(57)</sup>.

يقول ماركس: «العبد هو عبد، ويصبح رقاً في ظروف محدّدة. وهذه الآلة هي آلة لغزل القطن، وتصبح رأس مال في ظروف محدّدة. ولا يوجد رأس مال خارج هذه الظروف، كما أن الذهب ليس بحد ذاته نقداً، والسكر بحد ذاته لا يعبر عن سعر للسكر»<sup>(58)</sup>. ويقول بأن رأس المال يمثل علاقات اجتماعية، علاقات الإنتاج البرجوازي أو علاقات إنتاج المجتمع البرجوازي. ويبيّن من خلال العلاقات بين العمل ورأس المال والأجر ورأس المال، أن هذه العلاقات تجري بين الرأسماليين والطبقات الكادحة أو البروليتاريا. ويصل الى نتيجة مهمة جداً وهي أن مصدر حاجاتنا ومنافعنا موجود في المجتمع، وقياسها

من المعروف ان ماركس حاول تطبيق المنطق الجدلي عند هيجل على الواقع، ومن المعروف كذلك أن هذا المنطق يشمل الفكرة ونقيضها والجمع بينهما. لكن عندما طبقه، لم يعطه الاهتمام الكافي، وذلك لأن التطبيق، بالنسبة اليه، كان مقياساً للحقيقة. لهذا السبب اتسمت الجدلية عنده بتجاوز دائم للتناقضات.

المواضيع والظواهر التي كانت بحاجة لزيادة في التحليل والتعمق، وإلا كيف نفسر التساؤلات التي كان يطرحها والتعديلات والحذف والإضافات التي كان يلجأ إليها باستمرار، خاصة فيما يتعلق بمؤلفه الأساسي رأس المال، كما كانت هناك مواضيع جديدة بحاجة لدراسات جديدة ولتطبيق مناهج جديدة. 3-

## الحواشي

- (1) Marx, Engels. L'idéologie allemande. éditions sociales, Paris, 1972. pp. 23-27.
- (2) Ibid., pp. 34-35.
- (3) Ibid., pp. 37-43.
- (4) Ibid., pp. 52-56.
- (5) Ibid., pp. 57-59.
- (6) Ibid., pp. 84-86.
- (7) Karl Marx, Misère de la philosophie. Paris, Union générale d'éditions, 1964. pp. 411-414.
- (8) Karl Marx et Friedrich Engels, œuvres choisies, tome premier, contribution à la critique de l'économie politique de Karl Marx, avant-propos par Friedrich Engels, éditions du progrès, Moscou, 1970. pp. 533-534.
- (9) Karl Marx, le capital, livre premier, éditions sociales, Paris, 1977. Postface de la deuxième édition allemande. p. 21.
- (10) Karl Marx et Friedrich Engels, œuvres choisies, tome premier, contribution..., éditions du progrès, pp. 533-534.
- (11) Misère de la philosophie, pp. 415-418.
- (12) Ibid., pp. 419-420.
- (13) Ibid., pp. 428-430.
- (14) L'idéologie allemande, pp. 42-44.
- (15) Karl Marx, Fondements de la critique de l'économie politique, introduction, éditions anthropos, Paris, 1967, pp. 29-30.
- (16) L'idéologie allemande, thèses 9 et 10.
- (17) Le capital, livre premier, postface de la deuxième édition allemande. pp. 16-20.
- (18) Sur ce point, voir:- Georges Gurvitch, Dialectique et sociologie, Flammarion, 1962, pp. 155-201.
- (19) Sur ce point, voir:- George Lukacs, Histoire et conscience de classe. Éditions de minuit, 1960, pp. 17-45.
- (20) L'idéologie allemande, pp. 49-51.
- (21) Ibid., pp. 131-134.
- (22) Ibid., pp. 121-136.
- (23) Ibid., pp. 121-136.
- (24) Karl Marx, œuvres I, critique de l'économie politique, traduction par M. Rubel et L. Evrard, 1963, Gallimard,

avant propos par Karl Marx, pp. 272-273.	
Ibid., Travail salarié et capital, pp. 210-212.	(25)
Karl Marx, œuvres, I, critique..., traduction par M.Rubel..., pp. 272-273.	(26)
Travail salarié et capital, pp. 210-212.	(27)
Misère de la philosophie, pp. 414-415.	(28)
Fondements de la critique de l'économie politique, introduction, pp. 40-42.	(29)
Capital, III, Mew, XXV, p. 822 sq.	(30)
Economie, 1844. Mew, EB, I, p. 546 sq., 549, 563, 564 sq.	
Capital, III, pl. EC. II, p. 1477 sq.	(31)
Capital, I, pl. EC. I, p. 1479, 1212 sq., 1167 sq., 1072 sq.	(32)
Économie, 1844. Mew; EB, I, p. 554 sq. 557, 476, 477, 523, 424, 512 sq. 520 sq.	(33)
Travail, 1849. Mew, VI, p. 400 sq. 406 sq. 408 sq.	(34)
Ibid., p. 411 sq., 412 sq.	(35)
Ibid., p. 412 sq., 415.	(36)
- Économie 1844. Mew; EB, I, p. 546 sq., 549, 563, 564 sq.	(37)
- Sainte famille 1845. Mew X II, p. 44.	
Notes, 1844, MEGA, I, T. III, p. 531.	(38)
Principes, 1857-1858, p. 404 sq., 67 sq., 69.	(39)
Misère, 1847. EC. pl. I. p. 11 sq.	(40)
Théories, 1862-1863. Mew, XXVI, T. I, p. 365 sq.	(41)
Dialectique et sociologie, p. 182.	(42)
œuvres de Karl Marx. économie, I, éditions Gallimard, travail Salarié et capital, pp.212-226.	(43)
Théorie, 1862-1863. Mew, XXVI, p. 122 sq., 144, 157, 171, 189 sq., 253, 363 sq. 260, 273 sq.	(44)
Dialectique et sociologie, pp. 184-186.	(45)
L'idéologie allemande, pp. 87-90.	(46)
Karl Marx et Friedrich Engels, manifeste du parti communiste, éd. sociales, Paris, 1958. pp. 5-26.	(47)
Économie, 1844. Mew; EB, I, p. 546 sq., 540, 563, 564 sq.	(48)
Manifeste du parti communiste, pp. 5-26.	(49)
Dialectique et sociologie	(50)
Ibid., pp. 190-195.	(51)
L'idéologie allemande, pp. 80-81.	(52)
<del>Ibid.</del> , pp. 90-92.	(53)
Fondements de la critique de l'économie politique, pp. 11-12.	(54)
Ibid., pp. 13-16.	(55)
Ibid., pp. 28-29.	(56)
Karl Marx, œuvres, I, critique de l'économie politique, Gallimard, pp. 536-537.	(57)
œuvres de Karl Marx, Économie..., travail salarié et capital, p. 210.	(58)
Ibid., pp. 212-217.	(59)